هيلين كيلر وآن سوليفان

عمياء، بكماء، صماء؛ تحصل على الدكتوراه

إرادة المتعلم وعطاء المعلم

زكريا محمد هيبة

صلاح صالح معمار

مدارك

هيلين كيلر وآن سوليفان

الكتاب: هيلين كيلر وآن سوليفان

المؤلف: أ.د. زكريا محمد هيبة ، د. صلاح صالح معمار

التصنيف: تعليم

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: يناير 2018

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978 - 614 - 429 - 874 - 9

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ **مدارك**. **لا** يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من **مدارك**.

Madarek Publishing House

مدارك

دار مدارك للنشر

8470 طريق عثمان بن عفان، حي التعاون، الرياض، المملكة العربية السعودية

8470 Othman Bin Affan St, Al Taawun Dist, Riyadh, Saudi Arabia

Zip Code: 3844 - 12478 Riyadh, Saudi Arabia Tel: +966 114541148

mdrek.com | read@mdrek.com | DarMadarek

أ.د. زكريا محمد هيبة د. صلاح صالح معمار

هيلين كيلر وآن سوليفان

إرادة المتعلم وعطاء المعلم

عمياء، بكماء، صماء؛ تحصل على الدكتوراه

الفهرس

•مؤلفاتها:	47
الفصل الثالث: (الصبغة الإبداعية لتعامل آن سوليفان مع هيلين كيلر):	52
•بهجة التعلم:	53
•التعلم بالطبيعة:	55
•البدء بتعلم أسماء الأشياء:	59
•الانتقال من البسيط للمركب ومن الحسي للمعنوي:	60
•التعلم باللعب:	63
•تربية الجمال في نفس المتعلم:	66
•انتزاع المعرفة من المتعلم:	67
•استخدام لغة الجسد:	68
•التربية بالحب:	70
•تعليم اللغة:	73

٠دور المرأة في المجتمع:	111
٠تربية الأطفال:	113
٠تماهيها مع الإنسانية:	115
٠دعوتها للحرية:	119
٠دعوتها للسلم العالمي:	120
٠إيمانها:	122
٠صعوبة الحياة:	125
٠حسها الاستشرافي:	127
٠نظرتها للموت:	127
خاتمة:	133
المراجع:	135

•براعة الاستهلال:	77
•تعتمد على الاستفهام:	78
الفصل الرابع: (هيلين كيلر وفلسفتها في الحياة)	82
•نظرتها للحواس:	83
•دعوتها للخيال:	92
•مدلول السعادة لديها:	94
•نظرتها للحب والوفاء:	98
•روحها المفعمة بالتفاؤل:	99
•إيمانها بقيمة المعرفة:	100
•منظورها للفن والجمال:	104
•دعوتها للإيجابية:	107
•نظرتها للعمل وأداء دور في الحياة:	108

الفصل الأول: (الإعاقة والمعاقون)	14
•أولًا-الإعاقة:	15
•ثانيًا-معاقون تحدوا الإعاقة:	21
الفصل الثاني: (حياة المعلمة والتلميذة: سيرة ومسيرة)	26
•أولًا: آن مانسفيلد سوليفان (المعلمة):	27
•قوة إرادة سوليفان:	28
•ثانيًا: هيلين كيلر (التلميذة):	32
•الميلاد المعرفي لهيلين	39
•أحبت القراءة من صغرها:	40
•قدرتها على الوصف الحي الدقيق:	41
•نشاطها السياسي والمجتمعي:	42
•رضاها عن وضعها:	44
•قوة إرادتها:	45

إهداء

إلى كل من فقد بعضًا من معاني الحياة؛ فأعطى للحياة معنى.

مقدمة

بعدد حبات الرمال، وبغزارة زخات المطر، وتدافع أمواج البحار، وتساقط أوراق الشجر؛ يقدم للدنيا ويخرج منها بشر.

كم منهم ولد ومات ولم يُعرف في أرضه، فضلًا عن بقية الأراضي!؟، وكم منهم عاش ومات؛ وقد كان كل باعثه كيف يأخذ من الحياة، لا ما يعطيها!؟ أين كل هؤلاء؟ أين ذكرهم وذكراهم؟ فقط في أديم الأرض، أو كما قال المعري:

صاحِ هذي قُبورُنا تملأ الرُّحبَ	فأين القبور من عهد عاد
خفّف الوَطْءَ مـــا أظنّ أَدِيْمَ الـ	أرض إلا من هذه الأجساد

لا تحــس منهــم مــن أحــد أو تسمع لكم ركزًا، ولا ذكرى

فقط العظماء هم من يبقى لهم ذكر؛ بما قدموه، نحتوا اسمهم في عقول البشر بما قدموا لهم، وحققوا الكثير مما رنوا إليه بالعزيمة والإصرار.

والتاريخ -كما يُقال-ليس أعمى فهو يعرف من يكتب. والتاريخ في تلك الصفحات سيكتب عن شخصين استثنائيين، أقل ما يقال عنهما: إنهما عظيمتان (هيلين كيلر، وآن سوليفان) التلميذة والأستاذة.

فهيلين أول شخص كفيف أصم يتلقى تعليمًا كاملًا حتى المرحلة الجامعية. كما أنها اعتُبرت حدثًا تعليميًّا إذ ذاك. وسوليفان معلمة أسطورة؛ سبقت معظم النظريات الحديثة التي ينُادى بها اليوم، وتغلبت على كل الصعاب؛ حتى ساعدت الجدار الحجري -بتعبير هيلين كيلر- أن يتكلم، بل ويجوب العالم؛ فيضيف للحياة حياة، وللمعاني معاني.

والكتاب مقسم إلى أربعة فصول: الفصل الأول: عن الإعاقة والمعاقين؛ ألقى فيه المؤلفان نظرة عامة عن المعاقين، واضطهادهم عبر العصور، ونظرة بعض الفلاسفة إليهم بامتهان وامتعاض. كما أشار إشارة سريعة لبعض هؤلاء المعاقين الذين تحدوا إعاقاتهم؛ وتغلبوا على أقرانهم العاديين.

وفي الفصل الثاني: تناول المؤلفان حياة كل من (هيلين كيلر وآن سوليفان) كل على حدة.

وكان الفصل الثالث: عن الممارسات الإبداعية لـ(سوليفان) مع (هيلين) حيث: بهجة التعلم، التعلم بالطبيعة، البدء بتعلم أسماء الأشياء، الانتقال من البسيط للمركب ومن الحسي للمعنوي، التعلم باللعب، تربية الجمال في نفس المتعلم، انتزاع المعرفة من المتعلم، استخدام لغة الجسد، التربية بالحب، تعليم اللغة.

وفي الفصل الرابع: قام المؤلفان بطرح فلسفة (هيلين كيلر) للحياة بكل ما فيها، وتمحورت حول: نظرتها للحواس، مدلول السعادة لديها، نظرتها للحب والوفاء، إيمانها بقيمة المعرفة، تماهيها مع الإنسانية، صعوبة الحياة، روحها المفعمة بالتفاؤل، إيمانها، دعوتها للحرية، دعوتها للإيجابية، منظورها للفن والجمال، حسها الاستشرافي، نظرتها للموت.

والمؤلفان إذ يقدمان للمكتبة العربية هذا الكتاب؛ يؤكدان بأن الإعاقة الحقيقية إعاقة العزيمة والإصرار، وأن البكاء على خساسة الهمم.

المؤلفان

الفصل الأول: الإعاقة والمعاقون

أولًا-الإعاقة:

ظل الأطفال ذوو الاحتياجات الخاصة ردحًا من الدهر مهمشين ومهملين، بل وفي بعض المجتمعات متعرضين للخلاص والإبادة، كما كان يحدث في إسبرطة من الخلاص من الأطفال المعوقين بإلقائهم من فوق قمم الجبال، أو بتركهم في الصحراء عرايا حتى الموت، أو بإلقائهم في النهر، كما كانت بعض المجتمعات تحرقهم بحجة حلول الأرواح الشريرة فيهم. وحتى بعض الفلاسفة مثل (أفلاطون)، دعا إلى نبذ المعاقين عقليًا وطردهم أو نفيهم خارج البلاد، كما رأى (أرسطو) أنه لا جدوى من تعليم الطفل الأصم.

والشيء نفسه نادى به (ميكافيلي) ومن بعده (هوبز) حيث اعتبر–الأخير-أن الإنسان ذئبٌ لأخيه الإنسان. ونادى (نيتشه) بضرورة القضاء على من لا يصلحون للحياة من المعوقين دون إمهال. وقد استقى نيتشه أفكاره المتعلقة بالقوة من أستاذه (شوبنهاور) وقد عمد هتلر مع بداية الحرب العالمية الثانية إلى استهداف الأفراد المعاقين عقليًا، أو المعاقين بدنيًا، أو المرضى العقليين للقتل فيما أسماه النازيون برنامج «T-4»، أو «القتل الرحيم». حيث تم قتلهم في غرف غاز مصممة خصيصًا لذلك. كما قُتل أيضًا المعاقون الرُّضّع والأطفال الصغار عن طريق حقنهم بجرعات مميتة من الأدوية أو من خلال تجويعهم. وتم حرق جثث الضحايا في أفران كبيرة تسمى أفران الحرق.

كل هؤلاء المفكرين والفلاسفة، كانت نظرتهم للمعاقين أنهم أفواهٌ مستهلكة وليست منتجة؛ وبالتالي يجب التخلص منهم.

وإذا كان الاهتمام بذوي الاحتياجات الخاصة (المعوقين) أحد أهم مظاهر التطور البشري؛ فإنه في الوقت ذاته مظهر من مظاهر تقدم الأمم وتحضرها –حتى ولو كانت في عصور ما قبل الميلاد-فتشير الآثار التاريخية على مدى اهتمام وعناية الفراعنة بتلك الفئات الخاصة من المعاقين وتقديم الدعم والرعاية لهم.

وفي العصر الحديث؛ فالبداية مع (برايل) وتطوير طريقته لتعليم المكفوفين، وإيمانًا بحقوق هذه الفئة في الحياة الكريمة صدرت المواثيق التي أكدت حقهم في الرعاية المتكاملة، ففي الثمانينيات خصص عام 1981 عامًا دوليًّا للمعوقين، ثم كان الإعلان العالمي حول التربية للجميع، واتفاقية الأمم المتحدة لحقوق الأطفال عام 1990، وإعلان برنامج فيينا الصادر عن المؤتمر

العالمي لحقوق الإنسان عام 1993، بالإضافة إلى إعلان النوايا المنبثق عن الندوة شبه الإقليمية حول تخطيط وتنظيم التعليم لذوي الاحتياجات الخاصة سنة 1993، والإعلان العالمي حول الاحتياجات التربوية الخاصة عام 1994 والتي أكدت جميعها علي ضرورة تعميم التعليم الابتدائي للفئات العمرية كافة بما فيها المعاقون.

وتؤكد الإحصاءات أن نسبة انتشار الإعاقة في المجتمعات الإنسانية حوالي 10 % من مجموع السكان، ونسبة الإعاقة في عالمنا العربي تصل لحوالي 31 مليون معاق حسب تقديرات 2003 (عبده، 2007) وأن نسبة ما يقدم من خدمات تربوية لا يزيد عن 5 % من جملة ذوي الاحتياجات الخاصة (الخطيب، 1997)

وتمثل حركة «أنسنة» التربية الخاصة –الحركة الإنسانية في التربية الخاصة- تغيرًا نوعيًّا وملموسًا واستراتيجيًّا فيما يتعلق بالتعامل مع المعوقين أو ذوي الاحتياجات الخاصة، وهذه الحركة تمثلت في هذه الوثائق الدولية والإقليمية وما يتمخض عنهما من اتفاقات ووثائق وقوانين تضمن لهؤلاء حقوقهم، والسير بخطوات حثيثة لترجمة هذه الحقوق إلى واقع، فكانت المؤسسات المتخصصة بهذه الفئة، وافتتاح أقسام متخصصة في الجامعات المختلفة ليناط بها مهمة التعامل مع هذه الفئة.

وقد أكد ميثاق رعاية المعوقين الذي صدر في الثمانينيات من القرن الماضي على أهمية دمج المعوق في بيئته، وتأهيله حتى يصبح عضوًا منتجًا في مجتمعه، وقد نال مجال الإعاقة والمعوقين اهتمامًا بالغًا في السنوات الأخيرة نتيجة تغيير اتجاهات المجتمعات ومعتقدات أفرادها نحو المعوقين، وأن لهم الحق -مثل الأفراد العاديين- في استثمار طاقاتهم وإمكاناتهم إلى أقصى حدّ، والتحول من كونهم يمثلون عبئًا اقتصاديًا على مجتمعاتهم إلى النظرة إليهم كجزء من الثروة البشرية، مما يحتم تنمية هذه الثروة والاستفادة منها إلى أقصى حد ممكن (العفنان، 2006)

ويمثل الاهتمام بالأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة مظهرًا من مظاهر تقدّم الأمم ورقيها، فبقدر تقديم الدعم والرعاية الشامل والمتكاملة لهذه الفئة؛ يمكن اعتباره معيارًا حاكمًا في تقدمه. ولما كان المعلم -أي معلم-هو الحلقة الأهم في منظومة التعليم بشكل عام، فإن هذه الأهمية تزداد اتساعًا مع هذه الفئة من الأطفال، ومن ثم فإن الاهتمام به وتسليط الضوء عليه أحد آليات الاهتمام والدعم المقدم لها.

لقد بات من المسلمات أن المعلم الناجح هو صمام أمان يضمن تخريج جيل ناجح في أية مؤسسة تربوية، أو نظام تربوي، لذا.. فإن الاهتمام به لم يعد قضية اختيارية، وإنما ضرورة حتمية تقتضيها معطيات عصرنا الراهن، وسبيل لتحقيق طموحات المستقبل، ولا بد من التأكيد على أنه لم يعد من المقبول أن يقوم بالتعليم إلا من هو مؤهل لذلك، لذا لا بد من مراجعة حقيقية لنوع وتكوين ما هم بمدارسنا (عبد الرازق، 2009).

فتؤكد بعض الدراسات التربوية أن 60 % من نجاح العملية التربوية يقع على عاتق المعلم، بينما يتوقف 40 % الباقية من النجاح على الإدارة، والمكتب، وظروف التلاميذ العائلية، وإمكانيات المؤسسة التعليمية (المشيقح، د.ت)

وسيظل المعلم ركنًا أساسيًّا في العملية التعليمية، ولن يتمكن النظام التعليمي من مواجهة تحديات العولمة المعاصرة دون إعطاء المعلم أولوية العناية والاهتمام بالإعداد والتدريب المستمر؛ بغية رفع مستواه، ومساعدته في تحقيق التفاعل اللازم والتكيف المطلوب مع المستجدات المعاصرة (عراد، 1425).

ولم يعد المعيار الدقيق للحكم على المعلم بما يمتلكه من معارف ومعلومات، وإنما قدرته على تطبيق ما يعرفه من خلال أداء تدريسي مناسب، قادر على تحقيق ناتج التعلم، وهو مجموعة الأهداف المخطط لها، والتي تظهر في تغيير مستويات التلاميذ (عبده، 2007).

والعلاقة بين المدرس والتلميذ علاقة بين خبرة وخبرة، بين خبرة المدرس عن التلميذ، وخبرة التلميذ عن المدرس، أي سلوك معلم نحو التلميذ، وسلوك تلميذ نحو المعلم، بمعنى كيف يعيش المدرس التلميذ، وكيف يعيش التلميذ المدرس. فالمشاعر بين الأفراد هامة ومفيدة لحياة وتواصل كل فرد مع الآخرين، فهذه العلاقة هي علاقة إنسان بإنسان آخر يقتسمان الرحلة –رحلة التعليم-من خلال هذه الرحلة يستطيع التلميذ بما لديه من إمكانات أن يفهم نفسه، ويغير من مفهومه لذاته واتجاهاته وسلوكه، وهذه الإمكانات من الممكن أن تظهر فقط عندما يهيئ المعلم المناخ النفسي المناسب عبر التواصل غير اللفظي من دفء وتقبل، يظهر في حركات جسمه وأوضاعه البدنية ونبرة صوته، وعلى وجهه كتعبيرات انفعالية، وفي تواصله البصري (محمد، 2004).

وتنمية علاقة إيجابية منتجة بين المعلم والمتعلم يمكن أن يساعد الطلبة على الارتقاء بجهودهم في التحصيل الأكاديمي والاجتماعي في الفصل.

وعلى الجانب الآخر فإن ثمة اتجاهات وسلوكيات معينة يمكنها أن تكون بلا قيمة للطلبة كما يمكنها أن تعوق تكوين العلاقات وتسهم في إحداث الفشل (بلوم، 2012). فما يمتلكه المعوق من اتجاه إيجابي نحو إعاقته يعني تقبله لها، وفهمه للنجاح وإحساسه به، وانعكاسًا لرضاه عن ذاته، ورضا الآخرين عنه، مما يدفعه إلى مواصلة الدراسة لتحقيق مزيد من النجاح، وبالتالي تحسين مستوى تحصيله الدراسي والوصول به إلى مستوى متفوق (العفنان، 2006).

ولم تتجه أنظار المعنيين بشؤون التعليم المدرسي إلى رعاية المعوقين – وبخاصة منهم فاقدو البصر والسمع والنطق-إلا منذ منتصف القرن الماضي لعوامل إنسانية محضة، مع العلم أن فاقدي البصر والسمع والنطق يفتقرون في الأساس إلى أدوات التعليم والتعلم الأساسية، سواء أكان هذا التعليم مدرسيًّا، أم إنه يحصل في مجرى الحياة اليومية المعتادة (جعفر، 1982).

وإذا كان من الشائع أن التدريس مهنة من لا مهنة له، -وقد يكون ذلك باعثه عدم وجود ظهير معرفي خاص بالتربويين بشكل مغلق عليهم- إلا أنه من المؤكد أن معلم ذوي الاحتياجات الخاصة يخرج من المسلمة السابقة، على اعتبار أنه لا بد أن يمتلك من المقومات والكفاءات، والتي بدونها لا يمكن أن يقوم بدوره المنوط به.

وعلى برامج إعداد التربية الخاصة أن تركز اهتمامها على إكساب المعلمين الكفايات المهنية، وإكسابهم القدرة على الابتكار والارتجال في حالة نقص الإمكانيات والمصادر (إمام، 2012). فمن غير السهل أن يلتزم المعلم بطريقة واحدة أو أسلوب واحد في تدريسه، فلا بد أن تتوافر في المعلم القدرة على التجديد والحركة، والقدرة على استخدام الجديد في الحقل التربوي (الأحمد، 2005).

وتأتي العلاقة الأكاديمية والإنسانية بين آن سوليفان وهيلين كيلر لتحمل كثيرًا من الممارسات التي يمكن أن ترتقي لتكون ذات طابع إبداعي، متسقًا مع الأفكار والمضامين التربوية الحديثة.

لكن في الوقت نفسه لم تكن هيلين لتصل إلى ما وصلت إليه من تلقاء نفسها، ولا بد أن يكون هناك معلم ساعدها على كسر هذه القيود، وتخطي تلك الكوابح التي تمثلت في إعاقتها السمعية والبصرية، والكلامية، هذا المعلم يتمثل في شخص الآنسة «آن سوليفان».

ويتساءل الكثير من الأجدر بالثناء، هيلين أم معلمتها؟ قالوا: إنه لو توفرت لهيلين معلمة أفضل عشر مرات من آن؛ لم تكن لتنجز ما أنجزته -بعد إرادة اللّه- لو لم تكن هيلين نفسها تملك في ذاتها مقومات الذكاء والنجاح، ولكنهم قالوا أيضًا: لو كانت هيلين أذكى عشر مرات مما هي عليه لم تكن لتصل إلى ما وصلت إليه لولا اللّه الذي سخر لها معلمة مثل آن.

ثانيًا-معاقون تحدوا الإعاقة:

«فاقد الإرادة؛ هو أشقى البشر». هكذا يقول سقراط، ففقد الأعضاء وإن كان بلا شك فاجعة، لكن الطامة الكبرى تكمن في فقد الإرادة، فكثير جدًّا من البشر فقدوا كثيرًا من دعائم الحياة بفقد بعض من حواسهم، أو بعض من أعضائهم، لكن التاريخ لم يذكر من هؤلاء إلا القليل؛ فقط من تحلوا بالعزيمة والإصرار، وقديمًا قال أحد الحكماء: إنما البكاء على خساسة الهمم. ولأن هيلين كيلير ومعلمتها سوليفان تأتيان على رأس هؤلاء؛ فإن المؤلفين رأيا أن يعرضا بإيجاز شديد بعضًا من هؤلاء المشاهير الذين تحدوا إعاقتهم؛ بالتحدي والإرادة.

(هوميروس) شاعر اليونان الشهير، كان أعمى، وقد عاش في القرن التاسع قبل الميلاد، وهو صاحب أشهر ملحمتين في التاريخ هما: الإلياذة والأوديسة. (أبو العلاء المعري) شاعر عباسي أصيب بالعمى وهو بالرابعة من عمره كان فيلسوفًا ومفكرًا وشاعرًا له كتاب اللزوميات في الفلسفة و...رسالة الغفران... و... سقط الزند. (مـوسى بن نصير) من قبيلة بكر بن وائل كان من كبار الفاتحين المسلمين قاوم الروم وفتح الأندلس وإفريقيا كما فتح مدنًا كثيرة في أوروبا وكان هذا القائد أعرجَ ورغم ذلك فقد بلغ النهاية في القوة والشجاعة وعلو الهمة. (بشار بن برد) شاعر عباسي ومن فحول الشعراء في الأدب العربي كان أعمى منذ ولادته ثم أصيب بالجدري كان بشار شديد الذكاء تعلم الشعر والادب ونبغ فيهما وله مدرسة شعريه خاصة كما كان إمام الشعراء في زمانه. (بيتهوفين) ألماني الجنسية أصبح أشهر موسيقي في العالم ولقّب بأبي السيمفونيات أصيب بالصمم في شبابه ومع ذلك أبدع في مجال التأليف الموسيقي بل وألف أروع مقطوعاته بعد إصابته بالصمم. (ستيفن هاو كنغ) العالم البريطاني المعروف الحائز على أعلى منصب أكاديمي في مجال الرياضيات، وهو كرسي الرياضيات الذي كان يشغله العالم الشهير نيوتن، وهذا العالم مقعدٌ يتحرك على كرسي متحرك أصدر العديد من المؤلفات. (فرانكلين روزفلت) أصيب بالشلل وعمره 39 عامًا ورغم ذلك فقد واجه الأمور بشجاعة ومثابرة وتصميم، وكأن شيئًا لم يكن، وظل يحقق طموحاته ويسير في حياته بكل جد وعزم إلى أن انتخب عام

1932 رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية، وقد فاز بانتخابات الرئاسة أربع فترات متتالية حتى توفي سنة 1945، وقد مارس علاجًا طويلًا منظمًا لساقيه؛ جعله يسير بواسطة حمالات من الصلب. وكان أول رئيس أمريكي توضع صورته على البريد وهو على قيد الحياة. (طه حسين) الأديب المصري فقد بصره منذ كان طفلًا، حصل على الدكتوراه من الجامعة المصرية عام 1914، وكانت أول دكتوراه تمنحها الجامعة المصرية. حصل على ليسانس الآداب من جامعة السوربون بباريس، عام 1917، حصل على دكتوراه الآداب من جامعة السوربون، عام 1918 عن ابن خلدون. ألف ما يزيد على خمسين كتابًا في القصة والأدب والتاريخ وفلسفة التربية، وترجم كثيرًا من مؤلفاته إلى اللغات الأجنبية المؤهلات العلمية. (نيكولاس فوجيسيك) هو شاب أسترالي ولد بلا أطراف، أي بلا أيد أو أرجل، على الرغم من إعاقته فقد استطاع اكمال تعليمه الجامعي وحصل على ثلاث شهادات جامعية في الاقتصاد وإدارة الأعمال والعقارات، وهو أيضًا يجيد السباحة ويلعب كرة القدم والجولف ويركب الخيل. (يم بيك) صاحب أقوى ذاكرة في العالم، والذي توفي عام 2009، هو نموذج ولِد يعاني من تلف في أجزاء في المخ، من بينها فقدان حزمة الأعصاب التي تربط بين نصفيه، الأطباء قد أعلنوا عند ميلاده أنه يعاني من تخلف عقلي حاد، وتوقعوا موته في سن 14عامًا، ذلك الشخص لديه قدرة على حفظ 12 ألف كتاب عن ظهر قلب، ويعتبر قمة في المعرفة، صنفه العلماء كعالم استثنائي يتمتع بذاكرة جبارة، فهو يستطيع قراءة 9000 كتاب، بالإضافة إلى حفظها بشكل احترافي، كما أن عيني (كيم) تعملان منفصلتين عن بعض، فهو يستطيع قراءة صفحتين في الوقت نفسه وبسرعة خارقة، يقرأ الصفحة اليمنى بعينه اليمنى، وفي ذات الوقت الصفحة اليسرى بالعين اليسرى، لتنطبع هاتين الصفحتين في المخ كالنقوش على الحجر، ولا يزيد ذلك عن عشر ثوان، والشيء المدهش أنه يستوعب 98 % من الكتب التي يقرؤها مقارنة بالشخص العادي الذي لا يزيد استيعابه على 50 في المائة في المتوسط. الشخص الذي اختبر معلومات كيم عن الحرب العالمية الثانية، قال عنه إنه: «جهاز كمبيوتر حي». (جهان بخش صادقي) الإيراني المصاب بالشلل الكلي لا يفارق فراشه، استطاع أن يصبح رسامًا، والذي نجح في الإنفاق على أسرته المكونة من 14 فردًا. بعد استعادة 15 % من وظائف جسده استطاع أن يستخدم راحتي يده في الرسم ويقول: «دخلنا يأتي من لوحاتي وشقيقي وشقيقاتي يساعدونني»، ويتراوح سعر لوحة من لوحات صادقي بين 30 و500 دولار، ويوضح صادقي أنه فخور لتحدي إعاقته وأنه أصبح رسامًا مشهورًا. (توماس أديسون) ولد في مدينة ميلان بأوهايو في الولايات الأمريكية عام 1847، كان يعاني من ضعف السمع، فلم يستكمل تعليمه؛ لأن مستواه التعليمي كان ضعيفًا، ولكن في الوقت الذي رفضته المدرسة احتوته أمه بالحب والحنان، فأخذت تعلمه القراءة والكتابة

والعلوم، وعندما بلغ 11 عامًا كان قد درس تاريخ العالم نيوتن والتاريخ الأمريكي وروايات شكسبير وغيرها. ولقب إديسون بالعالم صاحب الألف اختراع لأنه وحده سجّل أكثر من 1090 براءة اختراع!. (آينشتاين) من أعظم العقول في القرن العشرين لم يتعلم النطق إلا وعمره أربع سنوات، ولم يتعلم القراءة إلا وعمره سبع سنوات وأستاذه كان يشتكي منه إنه كان بطيء الفهم غير اجتماعي، ثم أصبح رجلًا «من أهم وأشهر وأعظم العلماء « حيث اشتهر بأبي النسبية لوضعه نظرية النسبية الخاصة ونظرية النسبية العامة الشهيرتين اللتين كانتا الخطوة الاولي للفيزياء النظرية الحديثة، وعلى الرغم من ذلك كان آينشتاين شخصًا متوحدًا.

الفصل الثاني:

حياة المعلمة والتلميذة: سيرة ومسيرة

سوف يعرض المؤلفان في هذا الفصل نبذة عن حياة كل من آن سوليفان ومعلمتها هيلين كيلر.

أولًا: آن مانسفيلد سوليفان (المعلمة)

من يقرأ قصة هيلين لن يجد موضعًا لها إلا كانت معها معلمتها؛ فهي تارة مع هيلين تساندها في أحد المواقف، وتارةً أخرى تحدثها وتوجهها بحنان الأم، وأحيانًا ترقبها من بعيد، وهكذا لا نعدم لها أثرًا في كل صفحة من صفحات حياة هيلين، وكما بهرتني هيلين شدتني هذه المعلمة، وكما أعجبت بهيلين أسرني إخلاص هذه المعلمة؛ (سلام، 2007، http://www.alukah.net).

كانت آن سوليفان ابنة أسرة أيرلندية فقيرة ولدت في 14 إبريل عام 1866، ماتت أمها وهي في الثامنة من عمرها، كانت تشكو من تعب في عينها، ولم تلق أي اهتمام من أحد، ولم يكن لها أي أصدقاء إلا بعض المتسولين، وبعد مرور أربع سنوات من وجودها في الملجأ هربت منه بعد أن ألقت بنفسها على أحد الزائرين قائلة: أريد أن أذهب إلى المدرسة، وفي معهد (بركنز) للمكفوفين تعلمت آن طريقة برايل في القراءة وتعلمت الأبجدية، وعندما بلغت الرابعة عشرة من عمرها وبعد العملية التاسعة استطاعت أن تبصر لكن بشكل جزئي، ولكنها بقيت في المعهد نفسه ست سنوات أخرى (www.albayyna-new.com) في عام 1905م تزوجت من (جون ميسي) الذي تلقت (هيلين) عليه دروسًا في فنون الكتابة.

قوة إرادة سوليفان:

منذ البداية أخذت آن على نفسها عهدًا أن تخرج هذه الفتاة الصماء، البكماء، العمياء من الظلمات إلى النور، مهمتها لم تكن سهلة قط، بل كان عليها أن تسلك طريقًا شائكًا وعرًا، وإذا مرت عليها لحظات إحباط ويأس وملل، فسرعان ما تحرق جذوة النار التي في داخلها هذه المشاعر السلبية، كانت في البداية تقول: لو كنت فقط مؤهلة أكثر لهذه المهمة العظيمة، كل يوم أشعر بقصوري، عقلي مليء بالأفكار ولكني لا أعرف كيف أنظمها، كم أتمنى لو أجد من يساعدني؛ فأنا أحتاج إلى معلمة تمامًا مثلما تحتاج هيلين، ثم تضيف فتقول: أعلم أن تعليم هذه الطفلة سوف يكون أهم حدث في حياتي،

ولكنها سرعان ما استردت ثقتها بنفسها وتلمست طريقها، فنجدها تقول في رسالة لاحقة إلى إحدى معلماتها: شيء في داخلي يخبرني بأني سأنجح نجاحًا يفوق ما خططت له في أحلامي، أدرك أن هيلين تمتلك قدرات متميزة، وأعتقد أنني سوف أستطيع أن أطور هذه القدرات وأعيد رسمها، لا أدري كيف تكوّن في داخلي هذا الإحساس، إذ منذ فترة قصيرة فقط لم يكن لدي أي فكرة كيف أبدأ عملي، وكنت أتلمس طريقي في الظلام، ولكني الآن أعرف ماذا يجب عليّ أن أفعل، وعندما تواجهني المصاعب لا أنزعج، ولا يصيبني اليأس بل أعرف كيف أتصدى لهما، وتقول: كم هو عظيم أن تشعر بأنك ذو فائدة في هذا العالم، إن وجودك مهم لشخص ما، إن اعتماد هيلين- بعد الله- عليّ، تقريبًا في كل شيء، يجعلني قوية وسعيدة (سلام، 2007، http://www.alukah.net).

وقد تحكمت معلمتها ومنقذتها آن سوليفان في أعصابها، وهي تدرك الصعوبات الكثيرة التي تترتب على قرار هيلين كيلر في دخول الجامعة. كانت تجلس إلى جوارها وتنقل بأصبعها كل ما يقوله الأساتذة في المحاضرات، وكانت تجهد عينيها بالقراءة لتنقل لها كل ما تقرؤه بالإضافة إلى تشجيعها على متابعة المطبوعات المكتوبة بطريقة برايل (المهندس، http://www.alriyadh.com).

كان لديها إيمان راسخ بأن الإنسان مهما كان لديه من عاهات يستطيع أن يتعلم ويصبح إنسانًا عاديًا، كما إنها اتسمت بالصرامة في بداية تعاملها من هيلين ولم يتسرب إليها اليأس على الرغم من أنها –هيلين-كسرت لسوليفان سنها في بداية تعاملهما معًا.

قال بعضهم يريد تخفيف بعض ألمها:» شدّي حيلك فإن هيلين لا يمكن أن تمضي بدونك..» .... المعلمّة أجابت والأسى يجتاح كيانها: « إن ذلك يعني أنّني فشلت»، لقد كان هدف هذه المعلّمة أن تحرر هيلين .. تحررها حتى منها، حتى من الحاجة إليها..وبعد ذلك تذكرت عملها الدؤوب وشعرت أن التلميذة لن تفشل (معروف، 1997، 153).

وكـانت تقول لهيلـين: «مهما يحدث لك فابدئي من جديد فتزداد قوتك، ويمكنك بذلك أن تحققي هدفًا آخر. وقد لا يكون هو الهدف الذي بدأت به ولكن بشيء آخر يسعدك يومًا أن تتذكريه»(http://www.alriyadh.com).

وكانت عينا «آن سوليفان» مشكلة دائمة لها، حيث إنها كانت ترى بالكاد الحروف على بعد قريب جدًّا، ولذلك فقد كانت الكتابة مشكلة أيضًا، ومع ذلك

فقد قرأت لتلميذتها كثيرًا من الكتب والنصوص في الأدب والشعر بالإضافة إلى مسائل كثيرة في الجبر والهندسة والفيزياء (المهندس، 2009).

تقول هيلين كيلر: كان كثير من الناس يؤكدون أنني كائن حي أبله، لقد كان عمري تسعة عشر شهرًا، وكنت كائنًا لم ينتقل من عالم النور إلى عالم الظلام، بل وإنما إلى عالم السكون والحزن ... كانت كلماتي القليلة قد تبددت، وكان عقلي مغلولًا في الظلام، وجسمي النامي تحكمه دوافع حيوانية، تقول هيلين: «ولم تكن الصدفة هي التي حررت عقلي من قيوده، بل إن ذلك يعود إلى مدرسة موهوبة هي «آن سوليفان». لم تكن آن سوليفان من طراز المدرسات العاديات، وإنما كانت امرأة شابة ذات حيوية ولها خيال منطلق يتلمس تحقيق أحلام كبيرة لكائن أعمى وأصم، لينقله من حياة السكون إلى الحياة الحقيقية ويجعله نافعًا وإنسانًا فريدًا»(المهندس، 2009).

وظلت هيلين تتذكر سوليفان حتى بعد مرور عشرين عامًا على وفاتها، تتذكر لهيب أصابع سوليفان التي شبهتها بالكهرباء (Werner،691،2009). وألفت كتابًا كاملًا أسمته Teacher كتبت فيه كثيرًا من العلاقات مع سوليفان، وكأن الكتاب كتب لها.

وإذا كان كثير من الكتّاب قد كتبوا كثيرًا عن هيلين، وقدرتها على تحدي الإعاقة؛ فإن معلمتها الآنسة سوليفان لم تأخذ حظها من الذكر ولا الكتابة عنها، وهي التي لا تقل شأنًا ومكانة عن تلميذتها هيلين كيلر.

تقول آن: عرفت منذ سنوات أن أكبر مكافأة يحصل عليها المعلم هي أن يرى الطفل الذي قضى الوقت في تعليمه وقد أضحى شخصية هامة ذات ثقل في هذا العالم، وأن يصل إلى علمه أن إنجازه كان مصدر إلهام للعديد من المعلمين.

وتقول: كم هو عظيم أن تشعر بأنك ذو فائدة في هذا العالم. إن وجودك مهم لشخص ما. إن اعتماد هيلين عليّ، تقريبًا في كل شيء، يجعلني قوية وسعيدة.

وقد سُئلت هيلين عن سرّ حبها لسوليفان فقالت: إنني أدين لها بكل شيء، لأنها نقلتني من مرحلة الجمادات إلى مرحلة الأناسي (سويلم، 63).

وتقول هيلين: إن العجب يملؤني وأنا أفكر بفارق الظلمة والنور في حياتي قبل مجيئها وبعده، إذ الحق أقول: إن عقل معلمتي وروحها الممتازين ثم تفّهمها السريع لي وحكمتها المحبّبة هي التي جعلت أولى سنواتٍ تعلّمي

جميلة للغاية، كانت هذه المعلمة تؤمن أن عقل الطفل يشبه جدولًا صغيرًا بحاجة إلى التغذية كي يتوسّع ويتحول إلى نهر عميق ..إن بإمكان أي معلم أن يأخذ طفلًا إلى غرفة التعليم ولكن ليس بمقدور أي معلم أن يجعله يتعلّم، فالطفل لن يقبل على التعلّم إلاّ إذا كان مسرورًا (معروف، 1997، 153)

ظلت المعلمة ترافق تلميذتها (هيلين) لمدة خمس عشرة سنة ترافقها في الصف وتنقل لها المحاضرات والدروس عن طريق لمس اليدين وكذلك الأفلام السينمائية والمسرحيات. ظلت المعلمة كذلك إلى أن وافتها المنيّة عام 1936 (معروف، 1997، 153).

ثانيًا: هيلين كيلر (التلميذة):

مما لا شك فيه أن إطلاق لقب معجزة البشرية على هيلين كيلر لم يأت من فراغ، وهي حقًّا تستحق –بلا منازع هذا اللقب-، ولما لا وقد استطاعت بما أوتيت من قوة إرادة –غابت عن كثير من أصحاء الحواس-أن تتغلب على كل كوابح وموانع التعرف على أبجديات التعامل مع البشر فضلًا على أن تتعلم وترتقي إلى مصاف المتعلمين والدارسين بحصولها على درجات الدكتوراه في: العلوم، والفلسفة، والعلوم الإنسانية. أقول: استطاعت أن تحصل على هذا اللقب باستحقاق. الأمر الذي جعل الأديب الأمريكي الساخر Mark Twain يقول عنها: «أهم شخصيتين في القرن العشرين على الإطلاق هما: نابليون وهيلين كيلر». وقال أيضًا عنها: «إنني حاضرت لآلاف من المستمعين؛ ولكن (هيلين كيلر) أفضل مستمع لي وقول وزير الخارجية البريطاني ونستون تشرشل: إنها أعظم امرأة في عصرنا.

تنسب (هيلين) إلى (آرثر كيلر) الذي ولد في 5 فبراير عام 1836 من عائلة (ديفيد وماري كيلر). ويأتي تاريخ كيلر في الولايات المتحدة من البداية من (كاسبار كيلر) السويسري والذي قرر أن يرحل إلى الولايات المتحدة وقام بشراء مساحات واسعة من الأراضي في ولاية ألاباما. (آرثر) هو والد (هيلين) هو حفيد (كاسبار). تزوج (آرثر كيلر) مرتين. وكانت زوجته الأولى (سارة روسر) والتي توفيت عام 1877. وتزوج (آرثر) للمرة الثانية عام 1878 من (كيت)، وكانت (هيلين) هي الطفلة الأولى لهم، وفي عام 1886 ولدت الابنة الثانية لهم، وسُميت (ميلدريدكا كامبل) وولد الطفل الثالث لهم في عام 18911 باسم (ابن فيليب). وقد عـاش الزوجان معًا حتى وفاة (آرثر) عام 1896، وتوفيت زوجته (كيت) بعد ذلك في عام 1921 .
(https://ar.wikipedia.org/wiki)

ولدت هيلين كيلر في 27 يونيو، 1880، في توسكومبيا، وهي بلدة صغيرة من شمال ولاية ألاباما، ظل والداها مدة طويلة لم يستطيعوا أن يختاروا لها اسمًا مناسبًا. وقد اقترح والدها تسميتها باسم (ميلدريد كامبل) تكريمًا لأحد الأجداد، ولكن والدتها كانت ترغب في تسميتها باسم (هيلين ايفرت) –على اسم جدة والدتها-وكانت (كيت) -والدة هيلين-تعتقد بأن اسم (هيلين) يعني النور، وكانت ترغب أن تجعل حياة ابنتها كلها مملوءة بالنور، وقد اعترض والدها على ذلك الاسم الذي اختارته زوجته، ولكنهم نسوا أن يسموا الفتاة طبقًا للكنيسة، وتذكر أن الفتاة تدعى (هيلين) وكان الكاهن قد دعى لها أن تسمى باسم (هيلين أدمس كيلر(https://ar.wikipedia.org/wiki).

ولدت (هيلين) طفلة سليمة مفعمة بالحيوية والنشاط، حتى أنها نطقت بكلمة (مرحبًا) وهي في الشهر السادس، كما أنها تمكنت من المشي مع انتهاء عامها الأول. ولكنها بعد أن أتمت عامًا ونصف أصيبت بحمى شديدة، شخصها الأطباء على أنها من أعراض التهاب السحايا والحمى القرمزية، استسلم الأبوان للقدر فكانت مشيئة الله أن نجت الطفلة ودبت الحياة في جسدها الصغير، ولكن بعد فقدانها لأهم حاستين هما: البصر، والسمع، فعاشت سنوات طفولتها حياة بهيمية لا تعرف شيئًا غير حاجاتها الفطرية وكانت تنتابها نوبات غضب عارمة، وبكاء شديد؛ إذا لم تنجح في إيصال ما تريده للآخرين عبر الإشارات والإيماءات، إلى أن سخر الله لها معلمتها (آن سوليفان) (www.memi2012.blogspot.com).

فلم يكن أمام الأسرة سوى أن يدللوها، ويخفونها عن العيون، فهي لا تحسن التصرف، ولكن كانت تتواصل مع العالم الخارجي من خلال ابنة الطباخة في قصرهم، والتي كانت تدعى (مارثا واشنطن) حيث علمتها لغة الإشارة، وعند بلوغها السابعة من عمرها؛ أصبح لديها 60 إشارة تتواصل بها مع عائلتها.

وقد قامت عائلة (كيلر) بالاتصال بـ(غراهام بيل) –المخترع الشهير، فقد كان معلمًا للصم- بحثًا عن طريقة تستطيع بوساطتها أن تتواصل مع طفلتها وأن تعلمها بأي شكل، وعندما التقى (غراهام بيل) بـ(هيلين) لمس لديها ذكاءً فطريًا حادًّا، فنصح العائلة أن تطلب مساعدة مدرسة متخصصة في هذا المجال اسمها (آن سوليفان) (www.mhrde.net).

لقد طلبت (آن سوليفان) من الكابتن (آرثر كيلر) –والد (هيلين)- أن تستقل في المعيشة هي و (هيلين) في بيت صغير في حديقة القصر، بعيدًا عن اللهو والدلال اللذين كانت تعيش فيهما (هيلين(بالقصر، وقد أذن لها الكابتن) آرثر كيلر) في ذلك، وجهز لهما منزلًا صغيرًا بحديقة القصر.

بدأت سوليفان -التي كان عمرها 21 عامًا في ذلك الحين - بتعليم هيلين كيلر بعد أن بدأت تعيش في منزل عائلتها، وقامت سوليفان بابتكار طريقة جديدة للتواصل مع كيلر تعتمد على الضغط على اليد بنظام معيّن بحيث يمكن نقل الأفكار والرسائل إلى الطفلة، وقد أبدت هيلين ذكاءً شديدًا، حيث فهمت مبدأ الطريقة الجديدة بسرعة قياسية وبدأت بالتواصل والتعلم من خلالها (www.mhrde.net).

وبعد مرور عام تعلمت هيلين تسعمائة كلمة، واستطاعت كذلك دراسة الجغرافيا، بواسطة خرائط صنعت على أرض الحديقة، كما درست علم النبات، وفي سن العاشرة تعلمت هيلين قراءة الأبجدية الخاصة بالمكفوفين، وأصبح بإمكانها الاتصال بالآخرين عن طريقها (www./ar.wikipedia.org).

بدأت سوليفان بتعليم هيلين الحروف الهجائية باللمس داخل كف اليد، وقد وجدت المعلمة في طريقة برايل فرصة لتتعلم هيلين القراءة، وبعد عامين من الجهد تمكنت الطفلة من إجادة القراءة بطريقة برايل، وإجادة الطباعة أيضًا على الآلة الكاتبة، المصممة بحروف برايل نفسها (www.albayyna-new.com).

وفي السنوات التالية لم تحضر (هيلين) الفصول الدراسية في المدارس، وبدأت في الانخراط وراء المعلمة (سوليفان) والمحاضرين الآخرين. ويرجع نجاحها إلى تدريبها الجيد. وفى عام 1894 بدأت (هيلين) بالدراسة في مدرسة رايت للصم، حيث درست بها حتى عام 1896، ثم انتقلت إلى مدرسة للبنات في جامعة هارفارد، وفي كل مكان كانت معها المعلمة (سوليفان) تساعدها على عمل الواجبات المنزلية، وقراءة الكتب، وبدأت (هيلين) كل هذا عن طريق برايل للقراءة والكتابة، وبعد ترك المدرسة عام 1900 فازت (هيلين) بحق الالتحاق في مؤسسات التعليم العالي (https://ar.wikipedia.org/wiki).

في عام 1891 عرفت هيلين بقصة الفتاة النرويجية (راغنهيلد كاتا) التي كانت هي أيضًا صماء وبكماء لكنها تعلمت الكلام، فكانت القصة مصدر إلهام لها، فطلبت من معلمتها تعليمها الكلام، وشرعت سوليفان بذلك، مستعينة بمنهج تادوما عن طريق لمس شفاه الآخرين وحناجرهم عند الحديث وطباعة الحرف على كفها(www./ar.wikipedia.org).

ثم في مرحلة ثانية أخذت سوليفان تلميذتها إلى معلمة قديرة تدعى (سارة فولر) تعمل رئيسة لمعهد (هوارس مان) للصم في بوسطن، وبدأت المعلمة الجديدة مهمة تعليمها الكلام، بوضعها يديها على فمها أثناء حديثها لتحس

بدقة طريقة تآليف الكلمات باللسان والشفتين. وانقضت فترة طويلة قبل أن يصبح باستطاعة أحد أن يفهم الأصوات التي كانت هيلين تصدرها، لم يكن الصوت مفهومًا للجميع في البداية، فبدأت هيلين صراعها من أجل تحسين النطق واللفظ، وأخذت تجهد نفسها بإعادة الكلمات والجمل طوال ساعات، مستخدمة أصابعها لالتقاط اهتزازات حنجرة المدرسة وحركة لسانها وشفتيها وتعابير وجهها أثناء الحديث، وتحسن لفظها وازداد وضوحًا عامًا بعد عام في ما يعدُّ من أعظم الانجازات الفردية في تاريخ تربية وتأهيل المعوقين (www.ar.wikipedia.org) .

بدأت تصدر أصواتًا رغم أنها أصوات غريبة مزعجة، لو سمعها أي أحد من عديمي الرؤية وفاقدي الصبر لطلب منها الكف والصمت إلى الأبد. ولكن الصبر على الصرخات والصيحات إلى أن تتنوع وتتنغم وتتحسن يومًا بعد يوم. إلى أن تحولت الصرخات إلى حروف ومخارج وبتحسينها يومًا بعد يوم تحولت إلى ألفاظ فعبارات. وكانت أول ما نطقت به «أنا لم أعد خرساء».

عندما بلغت السادسة عشرة من عمرها دخلت الجامعة بكلية (رادكليف) التابعة لجامعة هارفارد لدراسة العلوم العليا، بعد اجتيازها الاختبارات الأولية للالتحاق بكلية رادكليف وذلك من 29 يونيو حتى 3 يوليو 1897، وكان انضمامها إلى هذه الكلية هو حلم كبير لها منذ طفولتها. وقد تعلم كل من مدرسي اللغة الألمانية والمستر (جيلمان) مدير المدرسة أبجدية الأيدي خصيصًا من أجل تعليمي. وبعد أن اجتازت هيلين الاختبارات بنجاح؛ قرر معلموها أنه سيكون من المفيد لها أن يتم إعدادها أولًا للدراسة، ونتيجة لذلك ذهبت إلى الكلية في عام 1900 .

وفي خلال فترة التعليم تعرفت هيلين على (ملجنت هنري خاتجلستون رودجرس) وكانت هيلين تلقبه باسم (مارك تفين) وفي جامعة رادكليف واجهت هيلين العديد من التحديات ومنها: طباعة الكتب المدرسية بطريقة برايل وكانت الفصول ممتلئة بالكثير من الأشخاص، وكان المعلمون يعطون لها اهتمامًا خاصًّا. كما واجهت هيلين العديد من الصعاب في الموضوعات الدراسية مثل الهندسة والجبر. (كيلر، د. ت، 104، 109).

وكانت معلمتها سوليفان تجلس بجوارها وتنقل لها بإصبعها كل ما يقوله الأساتذة في المحاضرات، وكانت تجهد عينيها لتنقل لها كل ما تقرأ (www.albayyna-new.com). وتمكنت هيلين من الحصول على بكالوريوس

العلوم والفلسفة في عام 1904 في سن الرابعة والعشرين، معتبرة بذلك أول إنسان على وجه الأرض مصابًا بالصم والعمى يحصل على شهادة جامعية.

وأثناء تواجد هيلين في الجامعة ذاعت شهرتها، وكانت تأتيها أسئلة كثيرة من جهات عدة، الأمر الذي دعاها إلى كتابة قصة حياتها معنونة إياها بـ» قصة حياتي العجيبة»، بعد أن نشرت قصتها؛ ازدادت هيلين شهرة، وفتحت لها الدول على اختلاف توجهاتها أبوابها، وتوافدت عليها الدعوات من جميع أرجاء المعمورة، مما مكنها من زيارة خمسة وثلاثين بلدًا، والتقت بكثير من الشخصيات العامة المشهورة.

ونظرًا لفقد هيلين الحواس الأساسية للتعلم (السمع، والبصر، والكلام)؛ فإنها ارتقت بحاستيها الثانويتين (الشم واللمس) إلى حدّهما الأقصى.

فعن طريق حاسة اللمس استطاعت أن تكمل دراستها الجامعية وتؤلف ستة عشر كتابًا وتتعرف على أمهات الكتب، وتعرفت من خلال هذه الحاسة على ألوان الزهور، والحالات النفسية لأصدقائها. كما استطاعت بحاسة الشم أن تتعرف على مهن الأشخاص ومراكزهم الاجتماعية -ذكرت أنها تعرفت مرة على زبائن أحد المطاعم عن طريق الشم (عطر ملابسهم وروائح الطعام)- وأن تميز بين الأحياء الراقية والفقيرة في المدن الكبرى، وعندما سُئلت يومًا كيف استطعتِ التمييز بين الليل والنهار؟ قالت: عن طريق الشم. لأن الهواء نهارًا أخف منه في الليل، والروائح التي تملؤه أضعف، وفيه حركة أكثر، وذبذبات في الجو أسرع (جعفر، 1982).

في إحدى ندواتها عندما صفق لها الحاضرون؛ رأوها وهي ترفع يدها، فتعجبوا! لا لأنها بادلتهم التحية، بل لأنها عمياء وخرساء وصماء! فسألوها: كيف عرفتِ أنهم يصفقون لك؟

فقالت: عندما صفقوا تحركت طبقات الهواء من حولي؛ فشعرت بحركة ذيل الفستان، فتوقعت أن الحاضرين يحيونني، ويجب عليّ أن أبادلهم التحية (المحرقي، د. ت، (ب) 7، 8).

عملت بلا كلل لمساعدة الآخرين الصم والمكفوفين للتغلب على التحديات التي تواجههم، عملت في السياسة لتأمين حقوق المرأة والمحرومين، وقد منحت ميدالية الحرية الرئاسية قبل أربع سنوات من وفاتها في عام 1968(www.gigglepotz.com).

وقد كانت هيلين كيلر متسقة مع إعاقتها ومتقبلاها إلى أبعد حدّ، فلم يثبت أنها أظهرت تمردًا أو رفضًا لإعاقتها، بل كانت عباراتها تقطر أملًا وإشراقًا، وقد ساعدها ذلك كثيرًا على أن تنتصر على تلك الإعاقات.

الميلاد المعرفي لهيلين

كانت لحظة فارقة في حياتها، تلك اللحظة التي خرجت فيها مع معلمتها إلى الطبيعة كالعادة، وكانت سوليفان تكتب على راحة هيلين أسماء الأشياء التي يقتضيها الموقف، ولم تكن هيلين تعي شيئًا، لكن في هذا اليوم، حيث كانتا في الحديقة –المعلمة والتلميذة- وهمّت الأخيرة بالشرب، وبينما كانت يدها تحت الصنبور، والماء ينساب عليها؛ إذ بالمعلمة تكتب على راحتها مياه.

وهنا كانت لحظة «الميلاد المعرفي» لها، إذ أدركت أن هناك مسميات للأشياء ثم ما لبثت أن وضعت يدها على الأرض، والمعلمة تكتب لها على راحتها أرض، ثم أشارت إلى سوليفان؛ فكتبت المعلمة، ثم إلى نفسها؛ فكتبت هيلين.

ثارت هيلين ثورة شغف بكل ما يحيط بها؛ تلمسه، والمعلمة تكتب على راحتها؛ فعلمت منذ تلك اللحظة أن لكل شيء اسمًا، حتى ذاتها لها اسم هو «هيلين»؛ فكانت البداية الحقيقية في انطلاقتها.

أحبّت القراءة من صغرها

تقول (هيلين): «بالنسبة لي، ففي عالم الأدب ليس هناك فرق بين أن أكون مبصرة قادرة على السمع، وبين أن أكون كفيفة صماء.. فأصدقائي من الكتّاب باستطاعتهم دائمًا أن يتحدثوا معي بكل حرية وبدون تفرقة أو تمييز».

من الكتب التي قرأتها واستهوتها: - الرسالة القرمزية، أول ما قرأت وهي ابنة الثماني سنوات. - اللورد فونتلروي، وكان هدية من الآنسة سوليفان وتقول (هيلين): إنه من أحب الكتب إلى قلبها. - أبطال الإغريق، كتاب العجائب لـ(هوثورن)، قصص من التوراة، أعمال (شكسبير)، ألف ليلة وليلة، نساء صغيرات، هايدي، الإلياذة وغيرها الكثير بالإضافة إلى كتب التاريخ المختلفة... ودرست بشكل معمق الأدب الألماني، والفرنسي... (www.goodreads.com).

قدرتها على الوصف الحي الدقيق

هذا التوسع في القراءة أكسب هيلين قدرة عالية في الوصف الدقيق الحي، فمثلًا تقول عن مقدم معلمتها آن سوليفان للمرة الأولى:

وجاء خطاب رقيق بأن (آن سوليفان) ستكون في طريقها إلينا، وكان قدومها حدثًا عظيمًا في حياتي، وشعرت يومها كأنني خرجت من مصر، ووقفت قبالة سيناء، ولمست قوة سماوية روحي، فمنحتها النور، ومن الجبل المقدس سمعت هاتفًا يقول: «المعرفة هي الحب والنور والبصيرة. ولا شك أن أهم يوم في حياتي هو يوم قدوم (آن). وقد شعرت قبيل قدومها بأن شيئًا ما سيحدث، فذهبت إلى الباب، وجلست على الدرج.. أنتظر!، وعندما أقبلت أحسست بها تقترب مني فمددت ذراعي إليها وقد حسبتها أمي، فحملتني وضمتني إليها في حب وحنان (http://almadasupplements.com).

وربما يتعجب بعض الناس من مقدرتي على التمتع بجمال الأشياء من خلال حاسة اللمس فقط، وقد يجدون في ذلك أمرًا مستغربًا، لكن أناملي حين تتحرك على خطوط ومنحنيات العمل الفني وتتحسسه؛ يصبح بمقدورها اكتشاف ما أودعه الفنان في ذلك العمل من أفكار ومشاعر، إنني قادرة على الإحساس بمشاعر الحب أو الكراهية وأمارات النبل والشجاعة، تمامًا كما أنا قادرة على الإحساس بكل ذلك في وجوه الحياء مـن البشر الذين يتـاح لي أن ألمس وجوههم». (www.goodreads.com).

وتصف شهر يونيو فتقول: «إذا كانت أيام يونيو بهية تلهم الشعراء بموضوعات ذهبية، فترى كيف تكون أمسياته؟ وإن كنت لا أرى النجوم وهي تبحر في ظلمة السماوات الملساء، فإني أرمق نجومًا أخريات تشبهها في البهاء وهي تتلألأ في أعماق روحي، فعقلي يرصد أعاجيب السماء (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 22).

نشاطها السياسي والمجتمعي

بدأت هيلين في جامعة رادكليف تشكيلًا جذريًّا لفكرها حول وجهات النظر اليسارية للنظام السياسي وفكرت لأول مرة حول حقوق العمال وذلك عندما قرأت أن معظم فاقدي النظر من طبقات السكان الفقيرة. وهذا يرتبط بشروط العمل في المصانع وأضافت في وقت لاحق نظام الاشتراكية. وقد أيدت (كيلر) أعمال (إميلين بانكيرست). كما لعبت دورًا مثيرًا للجدل في وجهة نظرها السياسية. وقد قامت بعكس كل أفكار الحزب الجنوبي. وكان والدها «تابعًا للحزب الجنوبي» وعلى سبيل المثال فهو حتى آخر حياته كان يعتقـد

أن الزنوج لا يعتبرون بشرًا. وكانت زوجتــه تؤيد أكثر وجهـات النظـر الليبـرالية. (https://ar.wikipedia.org/wiki).

أصبحت هيلين كيلر متحدثة وكاتبة مشهورة حول العالم، كما أنها أصبحت محامية للأشخاص ذوي الإعاقة لأسباب عدة، كما أنها كانت تنادي بحق المرأة في الاقتراع، وأحد الدعاة إلى السلام وإحدى خصوم (وودرو ويلسون) صاحب الفكر الاشتراكي الراديكالي والمؤيد لتحديد النسل، وفي عام 1915 قامت بتأسيس منظمة هيلين كيلر الدولية (HKI) بمساعدة من (جورج كيسلر) وقد كرست هذه المنظمة للأبحاث المتعلقة بحاسة البصر والصحة والتغذية، كما أسهمت في عام 1920 في تأسيس الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية (ACLU)، وقد سافرت بصحبة معلمتها (سوليفان) إلى العديد من البلدان الغربية، كما قامت برحلات عدة لليابان، حتى أصبحت إحدى الشخصيات المفضلة لدى اليابانيين، وقد التقت (هيلين) بالعديد من رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية؛ بداية بالرئيس (غروفر كليفلاند) وانتهاءً بالرئيس (ليندون جونسون) بالإضافة إلى الصداقات التي كانت تربطها بالعديد من الشخصيات المشهورة أمثال (الكسندر غراهام بيل) و(تشارلي شابلن) و(مارك توين)، وفي مطلع القرن العشرين تم اعتبار (هيلين كيلر) و(مارك توين) متطرفين، ونتيجة لذلك؛ فقد تم نسيان آرائهم السياسية، أو تم التغاضي عنها، في التصورات السائدة.

ونتيجة لمجهوداتها الكبيرة في الدفاع عن حقوق ذوي الاحتياجات الخاصة، وبفضل تواصلها مع الرئيس الأمريكي (روزفلت)، تم اختراع الكتب الناطقة، واختيرت لتولي منصب سفيرة المنظمة الأمريكية لفاقدي البصر.

أسست منظمة هيلين كيلر الدولية Helen Killer International، بمساعدة من (جورج كيسلر)، عام 1915، وقامت المنظمة بعمل أبحاث متعلقة بحاسة البصر والصحة والتغذية.

رضا هيلين عن وضعها

ترى هيلين «أن عمق إيمانها بالله - تعالى – وبرحمته، وحكمته كان سلاحها القوي الماضي الذي خرج بها من سجن البدن إلى رحابة الإيمان لربها الذي أتاح لروحها أن تحلق في آفاق العلم، والحكمة، والخير، والرضا، والتوافق الحقيقي العميق (سلام، يمنى 2007، إلى معلماتنا.. هيلين وآن، والمهمة الصعبة.(http://www.alukah.net).

وأحيانًا تخيّم عليّ لحظات مظلمة، أتساءل فيها عن نصيبي ودوري في الحياة، وتتلاعب برأسي أفكار مريرة، لكن الأمل ما يلبث أن يملأ جوانحي، وتعاودني البهجة حين أنسى واقعي المؤلم. إنني أحاول دائمًا أن أجعل الضوضاء في عيون الآخرين شمسًا دافئة وقمرًا منيرًا (كيلر، د. ت، 165)

تقول (هيلين): «لقد أدركت لماذا حرمني الله من السمع والبصر والنطق، فلو أنني كنت كسائر الناس؛ لعشت ومت كأية امرأة عادية «. فبفضل صبرها ورضاها بهذه الابتلاءات التي ابتلاها بها الله بإعاقات متعددة في الوقت نفسه أمدها بمعين لا ينضب من قوة الإرادة والقدرة على تخطي حاجز الإعاقات المتعددة التي قدرها الله عليها. (http://www.alyaum.com اعتدال الذكر الله، هيلين كيلر أعجوبة المعاقين).

قوة إرادتها

على بوابة أحد القصور العتيقة في فرنسا، كتب شعار «هنالك المزيد بداخلك» عندما تحسست بداخلي هذا الشعار الذي نحت على الصخر منذ قرون مضت؛ وجدت نفسي ترد بحماسة: حقًا، هذه حقيقة كل واحد فينا (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 37).

كانت هيلين مؤمنة غاية الإيمان بالحكمة التي تقول: «في داخل كل منا أسد رابض، المسألة فقط أن نقوم باستفزازه وإخراجه». وامتلاك الإرادة هو الطريق لتحقيق الأحلام مهما كانت العراقيل والتحديات. يقول نابليون بونابرت: «لا أملك الإرادة .. عبارة يتوارى خلفها العاجزون. وقد كان فعله متسقًا مع قوله. قيل له يومًا: إن جبال الألب شاهقة تمنع تقدمك ... فقال: يجب أن تزول من الأرض.

تقول هيلين: حين كنت أقرأ شفتي معلمتي كنت أعتمد كلية على أصابعي، إذ كان يتعين عليّ أن أستخدم حاسة اللمس في التعرّف على اهتزازات الحنجرة، وحركات الفم، وتعبير قسمات الوجه. وكنت في أغلب الأحوال أخطئ في إحساسي، وكان يتعين عليّ أن أكرر الكلمات أو الجمل نفسها على مدى عدة ساعات حتى أتوصل إلى إدراك الصوت الصحيح والإحساس به حين أنطق به. وقد تدربت وتدربت وتدربت، وفي بعض الأحيان كنت أنهار تحت وطأة الشعور بالإرهاق والإحباط، لكنني سرعان ما كنت أستعيد شجاعتي وأتشبث بطموحي (كيلر، د. ت، 73).

وقد كتبت كيلر عام 1892 قصة (ملك الصقيع) وقد ثبت أن تلك القصة تتشابه فى أحداثها وتعبيراتها إلى حدِّ التطابق مع قصة منشورة بعنوان (جنيات

الصقيع) الأمر الذي ..... هيلين لتحقيق، وكان لهذا التحقيق تأثيره المعنوي القوي على حياة هيلين، وكاد يعصف بها نهائيًا، إلا أنها استطاعت بعزيمتها، وتشجيع معلمتها سوليفان أن تعاود الكتابة –وإن كانت بأيدٍ مرتعشة؛ خوفًا من أن تكون ما كتبت يتشابه مع شيء سبق نشره-فكتبت قصة قصيرة عن حياتها لإحدى مجالات الأطفال. وهذه التجربة المبكرة في الاتهام بالانتحال والسرقة العلمية لطفلة عمرها اثنتي عشرة سنة؛ يمكن أن يقضي عليها نهائيًا، لا سيما وأن طريقة التحقيق معها -كما وصفت هيلين-تكاد تكون بوليسية، حيث خضعت للتحقيق من قبل تسعة محققين!.

وترى هيلين أنه ليست الظروف المعاكسة ألد أعدائنا، بل عدونا الأول العزيمة الفاترة. أنا أفكر؛ إذن أنا موجود. وأنا أعلم أن المجالات التي يمكن أن أعمل بها محدودة، ولكنها بالنسبة لي بدائل عديدة، فأنا مثل الفيلسوف الذي ضاقت به حديقته؛ فارتقى بها فوق النجوم (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 29).

ومع قوة الإرادة هذه حملت (هيلين) في داخلها روح المغامرة، وقد غرست فيها ذلك معلمتها (سوليفان)

لقد علمتني معلمتي على أن تغرس فيّ وتنمي لدي الرغبة في أن تسير السفينة التي تحملني في بحر الحياة؛ وعليه كانت مشاعر الاستمتاع بالمغامرة وبالسفر وحب العيش من أجل خدمة الآخرين أقوى من الإعاقات الجسدية (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 40).

وفي عام 1968 توفيت هيلين كيلر عن عمر يناهز 88 عامًا، تاركة للبشرية نموذجًا للإرادة والتحدي.

ونالت جائزة نوبل في الآداب عام 1979.

وفي عام 2003 م صدرت أول عملة أمريكية تحمل كتابة برايل وهي من فئة ربع دولار وتكرم هيلين كيلر الرائدة الأمريكية في مجال حقوق ذوي الاحتياجات الخاصة. وتحمل هذه العملة صورة هيلين كيلر كما تحمل الكتابة طريقة برايل. وقالت مديرة دار سك العملة الأمريكية في مدينة توسكوميبيا بولاية ألاباما مسقط رأس هيلين كيلر إن هذه العملة الجديدة الجدية تكرم مواطنة من أعطت للتعليم دفعة قوية بشجاعتها وقوة إرادتها.

مؤلفاتها

- قصة حياتي
- عالمي الخاص
- السلام عند المساء
- ليكن لنا إيمان
- ديانتي
- معلمتي آن سوليفان
- الباب المفتوح
- أضواء في ظلامي
- أغنية الجدار الحجري
- يوميات هيلين كيلر
- العالم الذي أعيش فيه
- الحب والسلام
- الخروج من الظلام
- تفاؤل
- إيماني
- فلنؤمن
- هيلين كيلر في اسكتلندا
- لو أبصرت ثلاثة أيام

وترجمت كتبها إلى خمسين لغة.

هيلين وهي طفلة

هيلين تستمتع بعبق الزهور تلك الحاسة الباقية لها

هيلين تقرأ بطريقة برايل

هيلين وكلبها الياباني

هيلين أثناء تخرجها من الجامعة

هيلين وجائزة الأوسكار

- الفصل الثالث:

الصبغة الإبداعية لتعامل آن سوليفان مع هيلين كيلر

كانت الآنسة سوليفان مبدعة بما تحمله الكلمة من معنى أثناء تعاملها مع هيلين، إبداع يمكن من خلاله اعتباره نموذجًا لمعلمي الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة يمكنهم على ضوئه استنباط الكثير من هذه الممارسات.

فالمعلم الذي يتطلع إلى الاشتغال بالتدريس ينبغي أن يتمكن من طرق التدريس والتدريب على المهارات الخاصة به، حتى يستطيع أن ينقل المعلومات ويغرس القيم، ويعدل السلوك، فالمعلم مادة وطريقة، أي لا يكفيه أن يستوعب مواد التخصص، ولكن ينبغي عليه أن يتدرب ويستوعب الطرق والمهارات التي تمكنه من توصيلها لطلابه (وزان، 1413) .وسيعرض الباحث في الصفحات التالية أهم تلك الممارسات التي يمكن وصفها بالإبداعية والتي مارستها آن سوليفان مع هيلين كيلر، وأهم تلك الممارسات ما يلي:

بهجة التعلم

«الحزانى لا يصنعون حضارة» (مجهول)

«فمن الزائف اعتبار الجدية والبهجة متناقضين، كما لو كانت البهجة عدو الدقة المنهجية، بل على العكس كلما زادت دقة منهجيتي في أسئلتي وفي ممارساتي للتدريس أصبحت مبتهجًا ومتفائلًا أيضًا، فالبهجة لا تأتي إلينا فقط في اللحظة التي نعثر فيها على ما كنا نبحث عنه، بل تأتي أيضًا أثناء البحث عنه، والتدريس والتعليم غير ممكنين دون البحث، دون الجمال، دون البهجة، فالقيام بالممارسة التربوية بشكل عاطفي وببهجة، لا يحول دون القيام بالتربية الجادة العلمية، أو دون تشكيل وعي سياسي واضح لدى المعلم، فالممارسة التربوية تشمل كل ما يأتي: العاطفية، والبهجة، والجدية العلمية، والخبرة الفنية في خدمة التغيير»(فريري، 2004).

ويصف البعض الجودة في التعليم بأنها ما يجعل التعليم متعة وبهجة، حيث إن المؤسسة التعليمية التي تقدم تعليمًا يتسم بالجودة هي

المؤسسة التعليمية التي تجعل طلابها متشوقين لعملية التعليم والتعلم مشاركين فيه بشكل إيجابي نشط، محققين من خلاله اكتشافاتهم وإبداعاتهم النابعة من استعداداتهم وقدراتهم الملبية لحاجاتهم ومطالب نموهم (عبد الرازق، 2002).

تقول هيلين: «قال أحد الحكماء (المعرفة قوة)، وبالنسبة لي (المعرفة بهجة وسعادة)» (هيلين كيلر). وهذه البهجة والسعادة هي التي كرستها سوليفان من خلال ممارساتها الإبداعية. فشعور هيلين بهذه البهجة إنما ترسخ لديها من خلال ممارسات معلمتها التدريسية ومواقفها التعليمية المتعددة.

تقول هيلين: قد تعلمت في ذلك اليوم عددًا من الكلمات الجديدة، ولست أذكرها جميعها، ولكني أذكر منها: (أم، أب، أخت، معلم) وكان من الصعب في ذلك اليوم أن يعثر أحد على طفل آخر أكثر مني سعادة، حين رقدت في سريري في تلك الليلة، ورحت أفكر في ألوان السرور التي جلبها إليّ ذلك اليوم، وإذ بي ولأول مرة في حياتي أتطلع في شوق إلى طلوع اليوم التالي(كيلر، د.ت).

ولكنها لما ذهبت إلى الجامعة اختلفت طرق التعلم التي كانت تمارسها معها سوليفان، وكأن البهجة التي اعتادت عليها في تعلمها قد غابت، أو في طريقها إلى الغياب.

فهي تقول: «إن المرء يذهب إلى الكلية ليتعلم على ما يبدو لا ليفكر ويتأمل، والمرء عندما يذهب إلى الجامعة يترك وراءه الكتب والخيال ومتعة الانفراد بذاته، وقد تعودت في ذلك الوقت على إراحة نفسي بفكرة أن أقوم بتحصيل الثروات الآن لكي أستخدمها مستقبلًا، لكنني في واقع الأمر كنت أفضل السعادة والبهجة في الوقت الحاضر على أية ثروات يمكن أن أمتلكها في المستقبل!(كيلر، د.ت).

وهذا الكلام يؤكد الجهد المضني الذي قامت به سوليفان لكي تحول المواقف التعليمية إلى مواقف مبهجة.

التعلم بالطبيعة

«انظر بعمق إلى الطبيعة وبعد ذلك سوف تفهم كل شيء أفضل» (ألبرت آينشتاين)

يولد الطفل ولديه ميل فطري لاستكشاف البيئة المحيطة به، وحب المعرفة يتزايد معه مع مراحل نموه المختلفة، لذا يتعين على المعلمة توفير الأنشطة اللازمة والتي من شأنها مساعدته على ذلك، والسماح له بالتعامل مع المثيرات المحيطة به حسب ميوله ورغباته (زناتي، 2008).

وقد أدركت آن سوليفان –رغم حداثة سنها، وقلة خبرتها-أهمية التعلم والتربية في الأجواء الطبيعية. وإن كان المنظرون وفلاسفة التربية ينسبون لجون ديوي ريادته لهذه المدرسة الطبيعية، والتي تدعو إلى ترك الطفل للتعامل مع الطبيعة، فإن سوليفان كانت سباقة له في أن تمارس هذا الأمر بشكل عملي، وتاريخيًّا وإن كان قد تزامن ديوي مع سوليفان حيث ولد الأول عام 1859، بينما ولدت سوليفان عام 1866، أي بعده بسبع سنوات، لكن سوليفان مارست عملها كمعلمة في وقت مبكر، حيث بدأت ذلك في السابعة عشرة من عمرها، الأمر الذي يؤكد ريادتها وسبقها في هذا الجانب.

كانت سوليفان تأخذ هيلين كيلر إلى حديقة المنزل، والتي اعتبرتها بمثابة معينات التدريس الطبيعية بالنسبة لها، ولطالما أعانتها هذه الطبيعة في أن تذلل لها كثيرًا من الصعوبات، لم تكن لتقدر عليه أحدث التقنيات العصرية. كما كانت تصحبها إلى الحدائق والغابات المجاورة، حيث تقوم الأخيرة بجمع الزهور على اختلاف أشكالها وألوانها، وكذا جمع الفواكه المختلفة، التي لم يكن لها فيها نصيب غير الاستمتاع بجمعها، فقد كانت لا تشاركهم الأكل من تلك الفواكه.

ولما لاحظت سوليفان أن هيلين لا تميز بين الكوب والماء، وتتعامل معهما على أنه شيء واحد، أخذتها إلى الحديقة. تقول هيلين: «ورحنا نسير في الطريق إلى البئر، وكان أحد الأشخاص يسحب الماء بالطلمبة، وقامت معلمتي بوضع يدي في الماء المتدفق، وبينما كان تيار الماء البارد يتساقط على يدي، راحت المعلمة تتهجى على اليد الأخرى ببطء أولًا ثم بسرعة كلمة ماء، وقد وقفت ساعتها هادئة وكل انتباهي موجه نحو حركة أصابعها، وفجأة بدا لي أني تذكرت شيئًا كنت قد نسيته، وشعرت بصوت مرتعش، وتكشف لي بطريقة ما أحد أسرار اللغة، إذ علمت حينئذ أن (م. ا. ء) تعني ذلك الشيء البارد الرائع الذي كان يتدفق على يدي، لقد أيقظت تلك الكلمة الحية روحي وأطلقتها من سجنها»(www.Inspiring-Quotes-and-Stories.com). وهذا الأسلوب يعتبر من الأنشطة التي أثبتت فاعليتها في تدريس العديد من المفاهيم المرتبطة بالحياة في بيئة المياه ما يعرف بنشاط (المربى المائي)، التي

تتاح فيه الفرصة للتلميذ أن يستخدم يديه في فحص الأسماك في المياه، ويتابع حركتها ودراسة بيئتها وما تتضمنه من علاقات، وقد أظهر التلاميذ المكفوفين استفادة كبيرة أثناء تفاعلهم مع الأنشطة اللمسيــة التي يتيحهــا استخــدام المربى المائي (Kumar، 2001) .

وتقول: «وهنا وأنا جالسة على العشب تلقيت أول دروسي حول أساليب الطبيعة، إذ مضت الآنسة سوليفان تشرح لي كيف تجعل الشمس والمطر النباتات تنمو، وكيف تبني الطيور أعشاشها، وكيف يجد كل مخلوق غذاءه ومأواه، وكنت كلما ازدادت معرفتي بالأشياء واتسعت دائرة معلوماتي؛ شعرت بأنني أكثر سرورًا واعتزازًا بالعالم المحيط بي، فقبل أن أتعلم كيف أجري العمليات الحسابية، أو أصف هيئة الأرض وخصائصها الجغرافية، علمتني الآنسة سوليفان أن أجد الجمال في شذى الغابات العطر، وفي أوراق العشب الرفيعة الندية، وفي حنايا يد أختي الوليدة، لقد جعلت الآنسة سوليفان الطبيعة جزءًا لا يتجزأ من أفكاري المبكرة، وجعلتني أشعر بأنني قريبة من الأشياء المفعمة بالحياة المحيطة بي»(كيلر، د.ت).

كما كانت تضع البرتقالة في يد هيلين لتشرح لها كروية الأرض، وتضع لها الفلين في الماء لتوضح لها عملية الطفو، وتضع في يدها البيضة الصغيرة حين يخرج منها الكتكوت الصغير.

وتشير الأدبيات التي تتخذ من تربية المكفوفين مجالًا لها، أنه يمكن التغلب على العديد من الصعوبات التي يفرضها كف البصر ويحقق العديد من الأهداف التعليمية التي قد يرى البعض صعوبة تحقيقها، وذلك اعتمادًا على حاسة اللمس، وما يمكن أن تقوم به هذه الحاسة من دور حيوي في عملية تعليم التلميذ الكفيف (شعير، 2002).

ومن نافلة القول، ما ذكره الدكتور طه حسين -في مذكراته- أن الدرس الثاني له في الجامعة كان عن تاريخ اليونان، وتناول جغرافية اليونان في ذاك الدرس، وقد ساعده في استيعاب وتصور الجغرافية اليونانية ما قامت به زوجه من تبسيط الأمور له، بأن قامت بعمل ما يشبه الخرائط المجسمة من الورق لليونان، وكانت تأخذ بيده وتمررها على هذه الخريطة، الأمر الذي مكنه من تصور الوضع الجغرافي لليونان، بصور استطاع أن ينقلها لمستمعيه بشكل قد رضوا عنه، ورضي هو عنه (حسين، 1967، 239).

وتقديرًا للدور الذي يمكن أن تقوم به حاسة اللمس في التغلب على العديد من الصعوبات التي يواجهها التلاميذ المكفوفين في دراستهم لمادة العلوم، فقد بذلت العديد من الجهود لتعديل مواد العلوم لتصبح ملائمة لطبيعة حاسة اللمس، وقد ظهرت تلك الجهود في صورة برامج ومشاريع علمية معدلة مدعومة بالعديد من المواد التعليمية اللمسية التي أمكن بواسطتها التغلب على صعوبات تعلم العلوم (شعير، 2002).

في عام 1893 ذهبت هيلين لزيارة المعرض الدولي بصحبة أستاذتها سوليفان، وقد سمح لها مدير المعرض بلمس أي شيء تريده من مقتنيات المعرض، وقد ساعدتها تلك التجربة في تكوين صورة للعالم أعمق بكثير عما كان قبلها.

تقول هيلين: لقد تعلمت من تلك الزيارة -التي استمرت ثلاثة أسابيع- قدرًا كبيرًا من المعلومات عن التقدم الحضاري للإنسان أكثر بكثير مما سمعت أو قرأت في كل ما وقع بين يدي من كُتب، كما علمتني كل هذه التجارب عددًا كبيرًا من الكلمات الجديدة، وحققت خلال تلك الفترة التي قضيتها في المعرض قفزة هائلة من مجرد اهتمامات طفلة صغيرة باللعب والقصص إلى فهم وتقدير إنسان ناضج لعالم الحياة اليومية (كيلر، د. ت، 97).

البدء بتعلم أسماء الأشياء

«معرفة الأسماء تؤدي إلى معرفة الأشياء» (أفلاطون)

بدأت سوليفان مع كيلر بالأسماء، أي الطريقة الكلية بدلًا من الطريقة الجزئية، وهي الأفضل – من وجهة نظر الباحث المتواضعة-، فالأسماء تحمل للمتعلم معنى يفهمه ويعيه، فهو يعرف معنى شجرة ويستحضرها في ذهنه، ويعرف معنى بيت، وقلم، وحاسوب، وغيرها من الأسماء التي يتعامل معها، غير أنه لا يعرف معنى حرف الباء أو الجيم أو الضاد، فهي مجردات لا معنى لها. وقد عملت سوليفان إلى أن تعلم كيلر الأسماء من حولها.

وقد كانت هذه الطريقة من أروع وأفضل الطرق التي استجابت لها كيلر، تقول هيلين: «ما زلت أذكر الأحداث التي وقعت لي في صيف عام 1887 في أعقاب الاستيقاظ المفاجئ لروحي، إذ تعلمت اسم كل شيء كان بوسعي أن ألمسه بيدي، وكنت كلما تداولت بيدي الكثير من الأشياء

وعرفت أسماءها واستخداماتها؛ شعرت بأنني أكثر قربًا عن ذي قبل من بقية العالم (كيلر، د.ت).

الانتقال من البسيط للمركب ومن الحسي للمعنوي

من الأساليب التعليمية الحديثة تحليل المحتوى، حيث يتم تحليل المحتوى التعليمي للمادة إلى عناصر أو مكونات فرعية، تسمى المهمات، بحيث تشكل كل مهمة فكرة واحدة، تصاغ على شكل جملة مفيدة أو فقرة صغيرة، وترتب نفسيًا من السهل إلى الصعب ومن البسيط إلى المركب، ومن المحسوس إلى المجرد، ومن المعلوم إلى المجهول (الحيلة، 2005) .

ومعلم التربية الخاصة لا بد أن يكون متمكنًا من ترتيب المادة الدراسية في المواقف المختلفة، من السهل إلى الصعب، ومن المحسوس إلى المجرد، ومن المعلوم إلى المجهول، وألا ينتقل من جزء إلى آخر إلا بعد التأكد من نجاح التعليم في الجزء الأخير(حسن، د.ت).

ويعاني الأطفال المكفوفون من تأخر في نمو المفاهيم وخاصة المجردة، وكذلك في اكتساب المفاهيم المرتبطة بالقدرة على إدراك العلاقات المكانية التي يعد البصر عاملًا مهمًّا في إدراكها (شعير، 2002).

وكانت المجردات التي لا تستطيع هيلين أن تتعامل معها بحاسة اللمس غير مفهومة بالنسبة لها، وقد عبرت ذلك صراحة حينما قامت سوليفان بالتعبير لها عن مشاعرها تجاهها وقد كتبت لها –كالعادة في كف يدها- أحبك يا هيلين، فسألت هيلين معلمتها: ما هو الحب؟ فجذبتها سوليفان أكثر إليها وقالت لها إنه هنا وأشارت إلى قلبها. تقول كيلر: «فحيرتني كلماتها الغامضة كثيرًا لأنني في ذلك الوقت لم أكن أعرف أي شيء لم يكن باستطاعتي أن ألمسه!(كيلر، د.ت).

كانت هيلين تقوم تضم مجموعة من الخرز لتكوِّن منها عقدًا، وكانت تضع خرزتين كبيرتين وبعدها ثلاثًا صغيرة، وأثناء قيامها بهذا النشاط، وقعت في كثير من الأخطاء، وأخذت سوليفان بصبر ولطف في لفت انتباهها إلى الأخطاء التي تقع فيها.

تقول: «وقد شجعتني الآنسة سوليفان بأن لمست جبهتي وتهجت على أصابعي فعل الأمر (فكري)! وفي ومضة مفاجئة عرفت أن الكلمة هي

اسم لما يدور في رأسي، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أتفهم فيها بوعي تام اسم شيء معنوي لم يكن باستطاعتي أن ألمسه بيدي» (كيلر، د.ت).

وهذه الطريقة التي كانت تستخدمها سوليفان مع هيلين عرفت حديثًا باسم هجاء الأصابع Finger Spelling وهي طريقة من طرق التواصل غير اللفظي مع الصم، وهي عبارة عن إشارات حسية مرئية يدوية للحروف الهجائية والأعداد بطريقة متفق عليها (عبد الرحيم، 1990).

وتعد طريقة الهجاء الإصبعي هي الأنسب من بين طرق الاتصال في تعليم الطفل الأصم الكتابة، حيث يدرب التلميذ على قراءة وكتابة الحروف الهجائية كل على حدة حتى يتمكن من كتابة تلك الحروف وتشكيل الكلمات ومن ثم الجمل (أبو فخر، 1999).

ولا يتم تكوين ونمو المفاهيم لدى الأطفال بشكل مفاجئ، وإنما بطريقة متسلسلة، تبدأ بسيطة وتزداد عمقًا وتعقيدًا بناءً على ما ينمو لدى الطفل من معارف وخبرات يكتسبها.

كما أن أحد أهم طرق علاج الاضطرابات الصوتية الحديثة، مراعاة التدرج من السهولة إلى الصعوبة، إذ يتم علاج الأخطاء الصوتية غير الثابتة، قبل الأخطاء الصوتية الثابتة، فيتم تدريب الأطفال على الأصوات التي تتسم بالسهولة والتي يمكن أن يكتسبها الطفل بسرعة قبل الأصوات القوية المفخمة (على، 2008).

التعلم باللعب

«قل لي، وسوف أنسى.

أرني، وقد أتذكر.

أشركني، وسوف أفهم» (كونفوشيوس)

يرى التربويون أن تحويل المناهج الدراسية من سياقها الجامد التقريري المباشر إلى بنية جمالية ناطقة متحركة في قالب مسرحي مشوق، مع

إعطاء الطلاب فرصة المشاركة والتواصل؛ سيزيد من قدرتهم على التحصيل العلمي للمواد الممسرحة (يوسف، 2007).

وفي البداية، لا بدّ من الإشارة إلى أن الآنسة سوليفان عند بداية تعاملها مع هيلين كانت هيلين تعاني من طاقة زائدة، «واللعب في بعض النظريات الحديثة –نظرية الطاقة الزائدة-يعد تنفيسًا غير هادف للطاقة الزائدة عند الفرد، ويمكن الاستفادة من طاقة النشاط الزائدة من خلال تحويلها من التنفيس غير الهادف إلى الهادف (زهران، 1997).

تقول هيلين: «وذات يوم أخبرتني الآنسة سوليفان أنني قمت ذات يوم بتثبيت كلمة (بنت) على فستاني بدبوس، ثم وقفت داخل دولاب الملابس، ووضعت معي في الدولاب الكلمات التالية: (في دولاب الملابس) وعلى ذلك يكون المعنى إجمالًا (في دولاب الملابس بنت). وقد أحببت اللعب بهذا الأسلوب، وهكذا كنت أنا ومعلمتي نلعب هكذا لساعات متوالية، حتى غطينا كل شيء في الغرفة بقطع الورق المرتبة في صورة جمل (كيلر، د.ت).

ويتفق هذا مع ما أكدته بعض الأبحاث التربوية على أن الألعاب التربوية –وبخاصة التمثيلية ولعب الأدوار تعتبر من أهم الوسائل التعليمية التي تستخدم لتجسيد المفاهيم المجردة لدى الأطفال، وتقربها منهم في شكل محسوس (علي، 1993).

تقول هيلين: «كنا نقضي أوقاتًا طويلة في السير على شاطئ نهر تينيسي، وفي ذلك المكان لعبت كثيرًا حيث تعلمت مبادئ الجغرافيا، وكنت أبني سدودًا من الأحجار الصغيرة، وأصنع جذرًا وبحيرات، وأحفر أنهارًا. كنت أفعل ذلك على سبيل اللهو والمرح ودون أن أعلم أنني أتلقى دروسًا (كيلر، د.ت).

واللافت للانتباه أن هيلين لم تعبر خلال حديثها السالف عن أي موقف يتعلق بالتعلم، فحديثها كله عن اللعب.

وطوال فترة التربية الأولى كانت سوليفان تنأى بأن تلقي دروسًا منتظمة مع هيلين، حتى في الوقت الذي كانت تستغرق فيه في الدراسة؛ كانت حريصة على أن يبدو الأمر أشبه باللعب منه بالدراسة.

لذا... ظلت فترات اللعب محفورة في وجدان هيلين تصفها بكل دقة.

فتذكر وهي في رحلة للطبيب (بلتيمور) وكان عمرها ست سنوات وأثناء وجودها في القطار؛ أهدت لها سيدة علبة من الأصداف، وقام والدها بثقب تلك الأصداف، فساعدها ذلك على أن تصنع منه عقدًا وهي في غاية السعادة. وفي الرحلة نفسها كان محصل التذاكر شغوفًا بها، الأمر الذي جعله يترك لها آلة ثقب التذاكر تلعب بها لمدة ساعات كما تقول (كيلر، د. ت، 20).

وصنعت لي عمتي «عروسًا» ألعب بها.. ولم يكن لها أنف ولا فم ولا أذنان ولا عينان، وقد ضايقني كثيرًا ألا أجد لها عينين، فجاهدت طويلًا حتى أفهمتها أنه لا بد من أن تصنع لها عينين، وقد بحثت تحت المعطف فوجدت معطف عمتي فقطعت منه خرزتين، وأشرت إليها أنني أريد أن تجعلهما عينين للدمية، فرفعت عمتي يدي إلى عينيها بطريقة استفهامية فأومأت لها بالإيجاب، ففعلت؛ مما ملأني بالسعادة (كيلر، د. ت، 20).

تقول هيلين: كنت كزميلاتي من الصغار أحب تقليد الكبار... حدث يومًا أن صعدت على ركبتي أبي ورحت أتلمس يديه اللتين تمسكان بالصحيفة التي يقرؤها وتحسست وجهه وقد وضع منظاره على عينيه، فأنزلني في رفق وترك صحيفتـه ووضـع فوقهـا منظـاره وقام لشأن من شؤونه.. ثم عاد ليجدني وقد وضعـت منظاره على عينـي، وأمسكت بالصحيفة بين يدي كأنما أقرؤها، وكنت أحسب أن ذلك سيفسر لـي سر إمساك أبـي لهذه الأوراق، ولكن السر ظل خفيًّا على أعـوام عدة، إلـى أن عرفت أمـر هذه الصحف، وأن والـدي يحـرر في إحداهـا.. وكـان والدي صيـادًا ماهرًا وقصاصًا مشهورًا، وكثيرًا مـا خط علـى يدي حكايات قصيرة كنت أطـرب لهـا(http://almadasupplements.com) .

تربية الجمال في نفس المتعلم

«سأل رجل أرسطو: ما الفائدة من دراسة الجمال؟، فأجاب: هذا سؤال رجل أعمى».

وجعل (شيللر) التربية الجمالية الوسيلة الأساسية التي تسمو بالإنسان من حيوانيته وغرائزه ومتطلباته الحسية حتى يصل إلى المرحلة العقلانية والأخلاقية (كمال، 1991). والجمال – من وجهة نظر (لوكاتش)- يؤدي إلى الانسجام بين الإنسان وذاته (غانم، 1999). وقد اعتبر

(شوبنهور) أن شعور الإنسان بالجمال أرقى مما تحظى به النفس في هذه الحياة (عبده، 1999).

وقد عمدت سوليفان من الوهلة الأولى على أن تنمي الجمال في نفس ووجدان هيلين، وقد بدا ذلك واضحًا في انفتاحها على الطبيعة من حولها، وعدم الاعتماد على القهر أبدًا، وإنما كان الحب والحنان نبعين دائمين في تعاملها مع تلميذتها الصغيرة، وظل هذا السمت قائمًا حتى في الأوقات التي بدت فيه هيلين شرسة ومتمردة على معلمتها، لم يخرجها هذا التمرد وتلك الشراسة عن اتزانها الانفعالي وحبها وعطفها على هيلين، وربما يكون هذا هو السر الحقيقي في التواصل الفعال والكيمياء التي ربطت بينهما، الأمر الذي جعل هيلين تعبر صراحة على أنها الشخص الوحيد الذي استطاع أن ينفذ إلى أعماقها.

وعندما قام الجميع بتقديم هدايا العيد لهيلين، قدم الجميع هدايا صماء أنيقة غالية الثمن، لكن سوليفان قدمت لهيلين عصفورًا من عصافير الكناريا، الذي ارتبطت به كثيرًا، وأشاع في نفسها كثيرًا من البشر والإشراق، فقد كانت تعتني به وتقدم له الطعام وتنظفه بنفسها.

وهذا الالتصاق المبكر بالطبيعة جعل هيلين تستمتع بالجمال بشكل وجداني أبعد ما يكون عن مجرد الاستمتاع اللحظي، وقد عبرت عن نظرتها للجمال بمفهوم فلسفي غاية في النضج والعمق لما قالت: «يعتقد أهلي ومعهم بعض الناس أنه من غرائب الأمور أن أزعم أنني أتمتع بمظاهر الجمال في شلالات نياجرا وبعجائب الطبيعة الأخرى، وهم دائمًا يسألونني: ما الذي يعنيه هذا الجمال؟ وما الذي تعنيه الطبيعة التي تتحدثين عنها بالنسبة لكِ؟ إنكِ لا تستطيعين رؤية الأمواج تنحدر نحو الشاطئ، أو تسمعين هديرها، فما الذي تعنيه هذه الأشياء حقًّا بالنسبة لكِ؟ وها أنا بدوري أؤكد بوضوح وبما لا يحتمل التأويل، أنها تعني كل شيء بالنسبة لي؛ فأنا بحواسي لا يمكنني أن أفهم الحب أو الدين أو حسن الخلق أيضًا، لكنها جميعًا تزيد من فهمي للحياة.. وهكذا الأمر بالنسبة للجمال والروعة والطبيعة (كيلر، د.ت).

انتزاع المعرفة من المتعلم

«إن المعرفة في أحسن صورها تلك التي تنتزع من عقل التلميذ انتزاعًا لا أن تسكب فيه».

(جون ديوي)

وقد أظهرت دراسة حديثة أننا نحتفظ 10% مما نراه، و20 % مما نسمعه، و50 % مما نراه ونسمعه، ولكن عندما نرى ونسمع ونعمل نحتفظ بـ 90 % من المعلومات(www.nestentertainment.com)

وقد أشارت إحدى الدراسات إلى أن استخدام الخرائط البارزة مع الطلبة الأكفّاء يسهّل من تدريس موضوعات الدراسات الاجتماعية (التاريخ، والجغرافيا) (عبده، 2007).

ويجب على المعلم أن يتيح الفرصة للطالب للمشاركة في العمل الصفي والاعتماد على الذات في التعلم، والتركيز على إكسابه مهارات البحث الذاتي، والتواصل والاتصال (العامري، 2009).

وقد كانت سوليفان كثيرًا ما تعمل على انتزاع المعرفة من عقل ووجدان هيلين، كانت تعمل ذلك في مواقف لعب مختلفة، أكثرها إثارة لهيلين ما أطلق عليه «التخمين» فقد كانا يجلسان معًا تعطيها مواصفات شيء ما وتترك هيلين تتوصل لهذا الشيء، وكلما تعجز تعطيها مواصفات أخرى، حتى تصل إلى المراد. وهذه الطريقة تشبه طريقة اللعب المعروفة في أحد برامج التلفزيون المصري بـ»عروستي».

استخدام لغة الجسد

«عين التلميذ معقودة بأستاذه». (أبو حامد الغزالي)

يعدّ التواصل غير اللفظي من أهم أشكال التواصل بين الأفراد والجماعات، ويؤكد ذلك (بيرويستل) (Birwhistell) حيث يجزم بأن 75 % من المعنى المستوحى من المواجهات الاجتماعية مع الآخرين غالبًا ما يكون نتيجة لدور المتغيرات غير اللفظية في عملية الاتصال، وأن ما نسبته 25 % فقط من المعنى يتم إدراكه بواسطة الكلمات (الطوبرقي، 1993).

والتواصل غير اللفظي هو العملية التي تتضمن تبادل الأفكار والمشاعر والآراء بين الأفراد بشتى الوسائل والأساليب، وتعبيرات الوجه، وحركات اليدين، والتعبيرات الانفعالية (الشخص، 1997).

وإذا كان التواصل غير اللفظي واستخدام لغة الجسد مهمًا لدى العاديين، فإنه أكثر أهمية لفاقدي البصر، وتزداد أهميته إذا كانت الإعاقة مركبة سمعية وبصرية، الأمر الذي يجعل اللمس والجسد هو الطريق الأوحد في التواصل مع الآخر.

فالبشر لا يتفاهمون بالكلمات فحسب، وإنما يمتلك الأفراد العديد من الآليات الحسية التي تلعب دورًا حيويًا في التواصل فيما بينهم، فنحن نتكلم ونسمع ونرى، كما أننا نتحرك ونلمس ونشعر، ومهما يكن من أمر، فليست هناك ثمة فروق جوهرية بين التواصل اللفظي والتواصل غير اللفظي، طالما أن الألفاظ رسائل تصل بين شخص وآخر يتحتم على الآخر كي يفهمها أن يفهم سياقها من حيث هي تعبيرات للوجه، ونظرات للعين، وإيماءات وأوضاع للرأس والجذع والأطراف، فالكلمات وحدها لا تكفي لتؤكد صدق الرسالة (محمد، 2004).

جعلت سوليفان من نفسها موديلًا أو نموذجًا، تتمكن هيلين من خلاله أن تتعرف على مخارج الحروف لكي تتمكن من النطق، فقد كانت هيلين تستخدم أناملها في الوقوف على حركات الفم والحنجرة وقسمات وجه سوليفان. وهذا أمر شاق وصعب، ولكن هذه الطريقة ذللت كثيرًا من الصعوبات أمام هيلين لكي تتعلم النطق.

والمدخل التواصلي في تعلم اللغات يبدأ من نظرية لغوية تقوم على أن اللغة هي عملية اتصال، لذا فإن هدف تدريسها كما يشير إليه (هايمز) هو الطلاقة أو الكفاءة التواصلية، بمعنى القدرة على استخدام النظام اللغوي بشكل فعال وصحيح (عميرة، 2005).

وقد ظهرت بعض الاتجاهات التي تنصح باستخدام حركات اليد أمام الوجه لمساعدة قارئ الشفاه لتمييز الأصوات الصعبة والمتشابهة، ويعرف هذا الأسلوب بأسلوب الكلام المرمز Cued Speech (القريوني، والسرطاوي، والصمادي، 1995).

التربية بالحب

«يمكننا عمل الكثير بالحق، لكن بالحب أكثر»

(شكسبير)

وقد أبدى «سيجموند فرويد» ملاحظة ذات مرة لـ«إريك إريكسون» أحد مريديه قائلًا: أن تحب وأن تعمل، هما القدرتان التوأمان اللتان تمثلان علامتي النضج الكامل (جولمان، 2000).

فالطفل الذي يعيش في محيط يستشعر فيه الحب؛ يعيش سعيدًا، وعندما يتملك الحب قلبه ويمتد إلى عقله؛ يجعل مزاجه متفائلًا يميل إلى العطاء والعمل، فتفتح له أبواب النجاح على مصارعها.

فالحب هو المفتاح السحري لمغالق الإنسان عمومًا والطفل على وجه الخصوص، فكما يقول كونفوشيوس: «حب البشر وقدرتنا على الحب تشكل جوهر إنسانيتنا» فذاكرتنا تختزن معلمًا نحبه ومعلمًا نكرهه، وليس مواد نحبها ومواد لا نحبها، فحب المادة وعدم حبها يأتي تبعًا لحب معلم المادة أو كرهه. فالمربي أيًّا كان وصفه يتعين عليه أن يدندن على هذا الوتر، وتر العواطف. هذا الوتر –وفقط-هو الذي يجعل الطفل يحب المدرسة، يحب واجباته، يحب القراءة الحرة.

وعلى الجانب الآخر فإن عدم إشباع الحب يؤدي إلى انعدام الأمن وعدم الثقة بالنفس، فيصعب على الطفل التكيف مع الآخرين ويصاب بالقلق والانطواء والتوتر، بل يعدّ الحرمان من الحب أهم أسباب الإصابة بمرض الاكتئاب في المستقبل (عبد السلام، وطاهر، 1990). ومن الناحية الاجتماعية تحدث فجوة بين المربي والطفل عندما لا تشبعُ حاجته إلى الحنان فيحس الطفل بالانقباض تجاه والديه ويستقل بمشكلاته (السحيم، 1415).

كما أن العقد النفسية تنشأ كنتيجة لغياب الحب الضروري لعملية نمو الأطفال وازدهارهم، وهذا يعني أنه يجب على المربي أن يحاكي في ممارساته مبضع الجراح، وريشة الفنان في الآن الواحد، وتلك هي الحكمة التربوية التي تتصف بطابع الأصالة، وتنطوي على منطق العبقرية (وطفة، 2000).

كانت سوليفان تعبر عن مشاعرها تجاه هيلين كلما واتتها الفرصة، فعلى سبيل المثال كانت تكتب لها في كفها: «أحبك يا هيلين».

إن مظاهر التواصل غير اللفظي للمعلم الدافئ إذا قدمها سوف يعقبها تغيرات معينة بناءة في شخصية وسلوك التلميذ، فإذا كان المعلم صادقًا متسقًا داخليًّا ومتقبلًا ومقدرًا للتلميذ على أنه إنسان ذو شأن، ومهتمًّا ومدركًا لمشاعر واتجاهات التلميذ؛ فإن ثمة تغيرات لا بد أن تحدث في

التلميذ، منها: أن يكون التلميذ أكثر واقعية في إدراك ذاته، أكثر ثقة في نفسه، أكثر تقييمًا لنفسه بطريقة إيجابية، أقل ميلًا إلى كبت مشاعره، وبعض خبراته أكثر نضجًا واجتماعية وتوافقًا في سلوكه، من أجل ذلك من الأهمية بمكان أن يعطي المعلم انتباهًا خاصًا إلى لغة الجسم، والحركات التي تصدر عن التلميذ، وإلى مشاعره تجاه نفسه وتجاه المعلم والآخرين (محمد، 2004).

وتوصلت إحدى الدراسات أن أطفال المعلم الدافئ (التواصل غير اللفظي الموجب) أصبحوا يرون أنفسهم بطريقة أكثر واقعية في إدراكهم لذاتهم، أكثر ثقة في أنفسهم وتوجيهًا لذاتهم، أكثر تقييمًا لأنفسهم بطريقة إيجابية، أقل ميلًا إلى كبت مشاعرهم وخبراتهم، أكثر نضجًا وتوافقًا في سلوكهم، وأقل تأثيرًا بالضغوط وأقل قلقًا، فالتلميذ أكثر شبهًا بالطفل العادي غير المعوق (محمد، 2004).

وعندما يعرف الطلبة أنهم يستطيعون التحدث، وأن المعلم سوف يستمع إليهم؛ فإن الحاجة إلى استخدام سلوك غير ملائم للإيفاء باحتياجاتهم سوف تتناقص، وتقل الرغبة في اللجوء إلى هذه السلوكيات (بلوم، 2012).

تعليم اللغة:

«اللغة وعاء التفكير» (مجهول)

سلكت آن في تعليم هيلين اللغة منهجًا يعتبر الأول من نوعه في هذا المجال، وآراؤها المتناثرة في رسائلها وبعض التقارير التي كتبتها عن هيلين تعتبر مرجعًا هامًا في تدريس اللغة، ليس للصم فحسب بل في تدريس اللغة الأجنبية للأطفال سليمي الحواس. وهذه الآراء تجعل منها منظّرة فذة وخبيرة لغوية بارعة. وإليها يرجع قصب السبق في اعتماد الطريقة الطبيعية التلقائية في التعليم natural method كمنهج في تعليم اللغة. فهي تعتقد أن تعليم اللغة لا يتم عن طريق حشو عقل التلميذ بقواعد اللغة وفروعها وأنواع الجمل واستخداماتها والمفردات اللغوية وتعريفاتها، بل هو عن طريق التعرض المباشر للغة الحية والتعامل اليومي معها عن طريق المحادثة والاستماع والقراءة. وهذا ما يسمى اليوم بـ the authentic approach وقد استقت آن طريقتها من ملاحظاتها المستمرة للأطفال الصغار وطريقتهم في اكتساب اللغة، فلاحظت أن الأطفال الصغار يتلقون اللغة عن طريق سماع الآلاف من الكلمات التي لا

يفهمون في البداية إلا كمًّا محدودًا منها، ولكن مع التعرض المستمر لهذه الكلمات يبدأ الطفل بالربط بين هذه الكلمات ومدلولاتها ودواعي استخداماتها، ومن ثم يبدأ هو بنفسه باستخدام هذه الكلمات في البداية على شكل كلمات مفردة وبعد مدة على شكل جمل لا تعدو الكلمتين في أول الأمر، ثم تتطور لاحقًا لتصبح جملًا كاملة مفيدة. وبهذا توصلت إلى الاعتقاد بأن الطفل الأصم يجب ألا يدَرّس كل كلمة لغوية بمفردها عن طريق تزويده بتعريفها، بل يجب أن يتلقى اللغة عن طريق التكرار المستمر للغة التي لا يفهمها في البداية. وهذا هو اختراع آن العظيم. وطوال اليوم سواء في وقت اللعب أو خلال وقت الدرس لم تتوقف المعلمة المخلصة عن كتابة الكلمات على كف تلميذتها الصغيرة، وبهذه الطريقة تشربت الصغيرة، الكلمات تمامًا كما يتشرب الطفل في المهد الكلمات. فلم تكن قواعد اللغة بتقسيماتها المملة يومًا من الأيام جزءًا من تعليم هيلين. وتركز آن على القراءة والدور الكبير الذي تؤديه في تزويد الطفل بالمفردات اللغوية وقواعد اللغة وأساليب التعبير وتنادي بضرورة تشجيع الأطفال على القراءة فتقول: أعتقد أن القراءة لا بد أن تتم بمعزل عن تمارين المدرسة. لا بد أن يشجع الصغار على القراءة من أجل مجرد المتعة. وموقف الطالب من الكتاب لا بد أن يكون هو التلقي غير الواعي. لا بد أن تكون أعظم الأعمال التي ابتكرها خيال الإنسان هي جزء من حياتهم، كما كانت تلك الأعمال هي الجوهر الأساسي في تكوين هؤلاء الأشخاص الذين كتبوها. وهي تدعو ألا يكون جهل الطفل بكثير من المفردات اللغوية حائلًا بينه وبين القراءة إذ إنه مع تكرار القراءة يكتسب الطفل كمًّا كبيرًا من الكلمات التي يتوصل إلى معناها بنفسه عن طريق السياق وهذه بالضبط الطريقة التي نناشد طلابنا اليوم أن يتبعوها، وهي ألا يضعوا نصب أعينهم أن يعرفوا معنى كل كلمة وألا يجعلوا هذا هو شغلهم الشاغل وألا يصرفهم الكم الهائل من الكلمات التي يجهلونها عن القراءة، إذ عن طريق الممارسة المستمرة للقراءة يكتسب الطالب لاشعوريًّا كمًّا هائلًا من أدوات اللغة والتي ستظهر تلقائيًا مع مرور الأيام في محادثاتهم وكتاباتهم. وتنادي آن بتعريض الطفل منذ وقت مبكر للغة الشعرية الراقية التي وإن صعبت على أفهامهم معانيها لا يعدمون تذوق جمالها اللغوي والذي يتجلى بإيقاعها الموسيقيّ فتقول: كثيرًا ما لاحظت أن الأطفال يبدون الإعجاب الأكبر والمتعة العظمى عند سماع اللغة الشعرية الراقية والتي دائمًا ما نظن نحن الكبار أنها فوق مستواهم، وأنها أصعب من أن تستوعبها عقولهم الصغيرة. هذا كل ما تستطيعون فهمه، هذا ما قالته إحدى المعلمات لتلاميذها الصغار وهي تغلق الكتاب الذي كانت تقرأ لهم منه. أرجوك اقرئى لنا الباقى حتى لو لم نستطع فهمه، أصرّ الأطفال الصغار

مستمتعين بالإيقاع الموسيقيّ وبالجمال الذي يحسونه في المعنى وإن لم يكونوا يستطيعون شرحه. ليس من المهم أن يفهم الطالب الصغير كل كلمة في الكتاب الذي يقرؤه حتى يستمتع به ويجني منه فائدة. لقد شربت هيلين من اللغة التي لم تكن في البداية تفهمها، وبقيت في ذاكرتها حتى احتاجت إليها فتجلت بتلقائية وسهولة في أحاديثها وكتاباتها. وهي تعيب على المعلمين الذين يطلبون من الأطفال أن يشرعوا في الكتابة ولما يتعرفوا على العالم من حولهم، ولما يشعروا بالحاجة إلى الكتابة. فهي تعتقد بأنه حتى تكتب لا بد أن يكون عندك شيء تريد أن تكتب عنه، وهذا يحتاج إلى استعداد ذهني، ولا بد أن تكون الذاكرة مليئة بالأفكار، ولا بد أن يثرى العقل بالمعرفة قبل أن تكون الكتابة جهدًا طبيعيًّا وممتعًا. وتنقد الأسلوب الذي يدرس فيه الأطفال الكتابة فتعتقد بأنه عادة ما يطلب من الطفل أن يكتب قبل أن يكون عنده أي شيء يقوله، فتقول: لنعلمهم أن يفكروا ويقرؤوا ويتحدثوا بحرية عند ذلك فقط سوف يشرعون بالكتابة لأنهم لن يستطيعوا أن يقاوموا سحرها. وهذه الطريقة تسمى اليوم The communicative approach وتقوم في فكرتها على قواعد الاتصال الثلاث وهي لكي تتم الكتابة لا بد أن يكون هناك متصِل ومتصَل به وسبب للاتصال. وهي تعتقد أن التعبير الجيد بدون التحضير المسبق له بالقراءة هو ضرب من المستحيل. وآن تصدر في الكثير من آرائها عن معرفة عميقة بنفسية الصغار وطريقة التعامل مع النشء الصغير. فتتكلم عن أهمية التقديم الجيد للدرس، فهي كما تقول كانت تبحث دائمًا عن أكثر ما يشد هيلين، ومتى اكتشفته جعلته نقطة البداية لدرسها سواء كان هذا الشيء ذا صلة بالدرس الذي تنوي تدريسه أم لا. كانت عندها قاعدة مهمة وهي ألا تنهر الطفل الكثير التساؤل بل تجيب عن أسئلته إجابة صحيحة وافية ما أمكن؛ لأن الأسئلة كما تعتقد الآنسة آن هي البوابة لعقل الطفل. لم تكن آن لتبسط أجوبتها أو تعبيراتها بدون حاجة حتى تتناسب مع مستوى الطفل العقلي. وكانت تصرّ على كل من يتكلم مع هيلين أن يتحدث معها بطريقة طبيعية كما لو كانوا يتحدثون مع نظرائهم بجمل كاملة وأفكار عالية المستوى سواء فهمت هيلين أم لم تفهم. وهي تعتقد بأن كل طفل يمتلك كمًّا من الإبداع داخله، وما علينا إلا أن نكتشف هذه المواهب ونطورها بالطريقة الصحيحة (http://www.d1g.com).

ما يلفت النظر في آن هو روحها الثورية التي تنقد الممارسات الخاطئة باسم التعليم، وتهاجم كل تقليدي موروث. تسجل في إحدى رسائلها زيارة قامت بها إلى معهد الصم، فاستقبلوها هي وهيلين أحسن

استقبال، واندهشت المعلمات من طلاقة هيلين اللغوية (أعني استخدام لغة الإشارة) وأخبروها أن التلاميذ لا يمتلكون طلاقة هيلين رغم أن بعضهم يدرس في المعهد منذ أكثر من ثلاث سنوات. في البداية تملكت آن الدهشة، ولكن دهشتها سرعان ما زالت عندما دخلت أول فصل. فوجدت التلاميذ مجتمعين حول السبورة ليكتبوا بمشقة بالغة بعض ما يسمى بالجمل البسيطة، وقد بدت عليهم أمارات السأم والملل. وعلى السبورة كتبت فتاة جملًا من نوع (عندي فستان أحمر جميل) و(عندي كرة كبيرة). وما إن انتبه الأطفال إلى وجود هيلين حتى تجمعوا حولها في لهفة وفي عيونهم ألف سؤال وسؤال. عندما سألت آن المعلمة عن المغزى من كتابة هذه الجمل قالت حتى يتدربوا على كتابة الجملة المفيدة. تقول آن: شعرت بالألم لحال هؤلاء الأطفال الذين يتلقون اللغة بطريقة ميكانيكية جامدة. ثم تنتقد حصر تعليم اللغة بتمارين السبورة المقيتة، فتقول: لا شيء يصرف الطلاب عن الرغبة في تعلم اللغة مثل الاقتصار على هذه التمارين البغيضة. فحتى يتعلم الطالب اللغة لابد أن يتلقاها في البداية بطريقة لا شعورية عن طريق التعرض المستمر لها عن طريق المحادثة والقراءة الحرة لا عن طريق تضييع الوقت بتعليم قواعد اللغة وتعريف الكلمات التي يحتاج إليها الطالب في مرحلة لاحقة. (http://www.d1g.com).

براعة الاستهلال

«الانطباع الأول يخدع الكثيرين» (أوفيد)

و(سوليفان) تصدر في الكثير من آرائها عن معرفة عميقة بنفسية الصغار، وطريقة التعامل مع النشء الصغير. فتتكلم عن أهمية التقديم الجيد للدرس، فهي كما تقول كانت تبحث دائمًا عن أكثر ما يشد هيلين، ومتى اكتشفته جعلته نقطة البداية لدرسها، سواء كان هذا الشيء ذا صلة بالدرس الذي تنوي تدريسه أم لا.

وهل هناك براعة استهلال أفضل من أول موقف جمع بين (سوليفان) و(هيلين)، حيث أحضرت الأولى معها دمية، وضعتها في يد (هيلين) فور لقائها الأول بها، ولم تنس (هيلين) هذا الموقف الذي نقش في وجدانها. إنه الانطباع الأول الذي يترك أثرًا في نفوسنا؛ يدوم.

يقول الدكتور (روبرت لاونت) من جامعة أوهايو في دراسة أعدها بهذا الخصوص: (إن الانطباع الأول الذي نكونه عن شخصٍ ما له أهميته

الكبرى عند التفكير في إقامة علاقةٍ دائمةٍ مع الآخرين، وإذا خطوت الخطوة الأولى بطريقة خاطئة فإن العلاقة المستقبلية بينك وبين الآخرين لن تكون مريحة تمامًا) وهنا يعني أنه من الصعوبة إعادة الثقة بالآخر بعد تزعزعها إلا إذا كانت تحكمك بهم صداقة طويلة وقوية ومتينة.

تعتمد على الاستفهام

«أجل ما خلق الإنسان، علامة الاستفهام» (مجهول)

اعتُبرت أداة الاستفهام أجل ما خلقه الإنسان في مهارات التواصل بين البشر، لا سيما في نطاق التعلم، وقد يرجع ذلك إلى أن الاستفهام يمثل عقدة فكرية، تضع المتعلم في حالة تحدٍّ؛ الأمر الذي يجعله –المتعلم- في عراك معها حتى يصل للحقيقة.

كانت عند (سوليفان) قاعدة مهمة وهي؛ ألا تنهر الطفل الكثير التساؤل بل تجيب عن أسئلته إجابة صحيحة وافية ما أمكن؛ لأن الأسئلة كما تعتقد الآنسة آن هي البوابة لعقل الطفل. لم تكن آن لتبسط أجوبتها أو تعبيراتها بدون حاجة حتى تتناسب مع مستوى الطفل العقلي. وكانت تصرّ على كل من يتكلم مع (هيلين) أن يتحدث معها بطريقة طبيعية؛ كما لو كانوا يتحدثون مع نظرائهم بجمل كاملة، وأفكار عالية المستوى، سواء فهمت هيلين أم لم تفهم.

هيلين وسوليفان والاحتفال بعيد ميلاد هيلين

هيلين وسوليفان وموقف تعلم باللمس

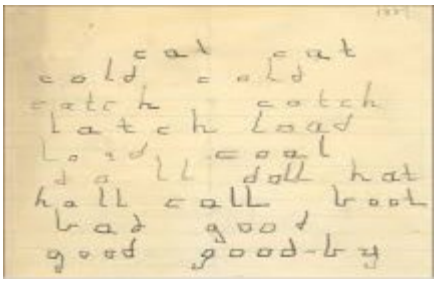

صورة من خط هيلين

هيلين والممثل العالمي شارلي شابلن

- الفصل الرابع:

هيلين كيلر وفلسفتها في الحياة

كان لهيلين فلسفة في نظرتها للحياة، ربما تتعارض مع إعاقتها المثلثية، تلك الإعاقة المركبة، التي جعلتها جدارًا حجريًا كما وصفت في كتابها أغنية الجدار الحجري، لكنها بالرغم ذلك لم ترشح تلك الإعاقة على وجدان وكيان هيلين، بل على العكس من ذلك؛ كان فقد هيلين لحواسها الثلاث مصدر بهجة بالنسبة لها.

ومن خلال العبارات الكثيرة والمقولات التي خلفتها هيلين، والتي أصبحت تدوّن في الحكم والمأثورات يمكن أن نقدم صورة عامة عن فلسفتها في الحياة. <(سويلم، 63)
(www.takalami.org) (http://www.maioz.com)
(http://kenanaonline.com) (http://www.misrjournal.com)
(http://www.rougemagz.com) (www.goodreads.com)
(http://www.alnoor.se) (http://www.looking4sarah.ws)
(http://alwakei.com) (http://www.edaraty.net)
(http://www.alyaum.com) (http://hessahpeace.com) (أحمد، 2010)
(العضيدان. دت، (أ)) (العضيدان. دت، (ب)) (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009)>.

نظرتها للحواس

«الرجل الحكيم هو الذي يعتبر أن الصحة هي أعظم نعمة للإنسان»
(أبقراط)

كانت هيلين عميقة بصورة كبيرة في تصورها للحواس، فلا يقف دورها الحقيقي عند حد الإبصار والكلام والسماع؛ بل لا بد أن تشتمل تلك الحواس على عمق في وظيفتها، فكم من أناس شاهدوا؛ ولم يبصروا، وكم من أناس تكلموا؛ ولم يقولوا، وكم منهم سمع ولم يفقه. «هناك من يسمع ولا ينصت، ينظر ولا يبصر، يشعر ولا يحس». إن هذا الوضعية في البشر تجعله في حقيقة الأمر أقرب منه إلى الحيوان، وأبعد عن الإنسانية.

إن الأصم وحده هو الذي يقدر نعمة السمع، والكفيف وحده هو الذي يقدر دروب السعادة التي تكمن في نعمة البصر، لكن الذين لم يبق لهم أن اشتكوا من الحرمان، ولم يسبق لهم أن فقدوا بصرًا أو سمعًا؛ أولئك قليلًا ما يحسون بعظمة نعمة الاستفادة من تلك الحاسة المقدسة. إن أبصار هؤلاء تقع على كثير من المناظر، كما أن أسماعهم تتلقى مختلف الأصوات، ولكن بقليل من التقدير، بل ربما دون اكتراث ودون إمعان، إنها فحوى العبارة التي تتردد لا يعرف المرء مقدار النعمة إلا حين تسلب منه، ولا يعرف عاقيته إلا عندما يكون طريح الفراش. كثيرًا ما فكرت في أن الإنسان –أي إنسان-إذا ما أُصيب بفقد بصره أو فقد سمعه لبضعة أيام من البداية الأولى لحياته؛ لظل يشعر طيلة حياته بأريج السعادة الذي يحف به، إن الظلام سيجعله –بلا محالة-أكثر تقديرًا للنور، الذي يراه صباح مساء، وإن الصمت المطبق؛ سيعلمه –دون شك-متعة وقع الصوت على مسمعه (كيلر، 2016، 17، 18).

وترى هيلين أن العين لا تقف وظيفتها على النظر السطحي الذي لا يتعدى أكثر من التقاط الصورة، بل يجب أن تكون تلك العين وسيلة للعقل أن يتدبر ويتفكر.

فالمنظر الشامل لمختلف الألوان ومختلف الحركات التي يزدان بها هذا الكون، كل ذلك يلاحظه معظم الناس دون أدنى تفكير!، قد يكون من الإنسانية أن نقدر قليلًا الأشياء التي لدينا، وأن نتوق إلى الأشياء التي ليست في متناولنا، بيد أن ما يدعو إلى الإشفاق الكبير في عالم النور؛ أن حاسة البصر تعد لدينا مجرد أداة زهيدة أكثر من كونها وسيلة تضفي على الحياة الكمال والجمال (كيلر، 2016، 20).

لو كنت رئيسة جامعة لفرضت مادة إجبارية حول موضوع (كيف تستفيد من عيونك) ويكون على معلم هذه المادة أن يحاول إفهام طلبته الوسائل التي تمكنهم من أن يضاعفوا المتع التي تزدان بها حياتهم عن طريق الرؤية الحقيقية للأشياء التي تمر أمامهم دون أن يعيروها أدنى اهتمام، نعم. يكون عليه إيقاظ طاقة طلابه وبعثها من نومها وفتورها (كيلر، 2016، 20).

ثم تراها تساوي بين من يملك تلك الحواس ومن يفتقدها بأن كليهما يخفى عليه سر هذا الكون، بالرغم من إدراك آياته، لكن هذا الإدراك –في واقع الأمر لم يوصله إلى سبر غور سر جلال هذا الكون الأعظم، « إن العمى ليس بشيء وإن الصمم ليس بشيء، فكلنا في حقيقة الأمر عمي

وصم عن الجلائل الخالدة في هذا الكون العظيم». وبالتالي نتساوى جميعًا من فقد الحواس ومن امتلكها. « الشيء الوحيد الأسوأ من كونك أعمى؛ البصر هو وجود النظر بدون رؤية.»

ثم تراها تجعل من إعاقتها مصدر إلهام؛ مستفيدة من حالة الظلمة التي عاشتها، ومن حالة السكون الذي غلفها «كل شيء له عجائب، حتى الظلام والصمت، وأنا أتعلم، أنه مهما كانت الحالة التي أكون فيها أكون قانعة».

وقالت أيضًا: إذا اعترض علي شخصًا متسائلًا ألا تسأمين من وحدة الأشياء التي تمسينها وأنت لا ترين اختلاف الضوء والظلام عليها؟ أليست الأيام كلها سواء لديك؟ سوف أقول : كلا إن أيامي كلها مختلفة فليست هناك ساعة تشبه أخرى عندي فإني بحاسة اللمس أشعر بجميع التغيرات التي تطرأ على الجو، وإني متأكدة بأن الأيام تختلف عندي بمقدار اختلافها عند الذين ينظرون إلى السماء ولا يبالون بجمالها بل يرصدونها ليقفوا منها هل تمطر أم لا، وفي بعض الأيام تنسكب الشمس في مكتبي فأشعر بأن مسرات الحياة قد احتشدت في كل شعاع من أشعتها، وهناك أيام ينزل فيها المطر فأشعر كأن ظلًا يتعلق بي وتنتشر رائحة الأرض الرطبة في كل مكان، وهناك أيام الصيف المخدرة حين يهب النسيم العليل ويغريني بالخروج إلى مظلتي حيث أتمدد وأحلم بالزهر يغشاه النحل وهناك ساعات العجلة والازدحام حين تحتشد الخطابات على منضدتي ثم ساعات لا نهاية لها تختلف وتتفق مع المفكرين والشعراء، وكيف أسأم ما دامت الكتب حولي.

تقول هيلين: اعتدت من وقت إلى آخر أن أختبر أصدقائي المبصرين لأكتشف ماذا يشاهدون. كنت مؤخرًا في زيارة لإحدى صديقاتي التي كانت عائدة لتوها من أحد الحقول، وعندما سألتها ماذا شاهدت؟ أجابتني: لا شيء على وجه التحديد. كدت لا أصدقها لو أنني لم أعتد سماع هذا الجواب من غيرها. فقد توصلت منذ وقت طويل إلى القناعة بأن المبصرين لا يرون إلا القليل، ثم تقول: دائمًا ما أتساءل كيف يمكن أن نمشي لمدة ساعة بين الحقول ثم لا نشاهد شيئًا جديرًا بالملاحظة؟! أنا الإنسانة العمياء أجد مئات الأشياء التي تشد انتباهي من خلال حاسة اللمس فقط. وأحيانًا يقفز قلبي شوقًا لمشاهدة هذه الأشياء. إذا كنت أحصل على متعة من مجرد اللمس فأي جمال سيتكشف لي من حاسة البصر. ولكن الأشخاص المبصرين مع الأسف لا يرون إلا القليل. «

من الخسارة أن تستخدم نعمة البصر في عالم النور كمجرد وسيلة لتسهيل المعيشة وليس أداة لإضافة بهجة للحياة». (كيلر، 2016، 18).

سألتْ بعض الأزواج يومًا –ممن عاشروا زوجاتهم طويلًا-عن اللون الذي تمتاز به عيون زوجاتهم، وفي أغلب الأحيان عبروا عن خجلهم وارتباكهم، واعترفوا بأنهم لا يعرفون حقًّا ألوان عيون زوجاتهم! (كيلر، 2016، 25).

وإني أشفق طوال الوقت على أولئك الذين يخرجون الأشياء التي في جيوبهم بأيديهم وينظرون إليها، ولا يحاولون أن يستمتعوا بمعاناة اكتشاف متعة اللمس، والذين لا يفهمون أهمية اللمس في تنميتهم وتقويتهم وزيادة اتزانهم العقلي (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 25).

فالأعمى الذي لا يستطيع أن ينظر إلى السموات؛ ينظر إلى داخل نفسه، ويحملق في الصور الذهنية المرسومة بداخله، ويراها بروحه؛ فيستمتع بما يستمتع به الأصحاء المبصرون، فيكون الخيال قرون الاستشعار التي تهز بحثًا عن مواطن الجمال في الحقول، في إحدى الأمسيات، أو نجمة تتلألأ في ليلة مزهرة، وعندما يتصفح الكفيف البهاء المرسوم بعقله؛ ينسى أنه كفيف تمامًا، مثلما تخبرنا الأسطورة الإغريقية كيف ينسى عالم الفلك أساسيات العلوم عندما يحملق في النجوم، ويستغرق حتى تهيم روحه في السماء، ولا تعود به إلى الأرض ثانية حتى يفكر في العلوم (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 22).

وقد سمت هيلين العيون التي لا ترى إلا الظاهر دون الغوص في التفاصيل بـ»العيون الكسلانة».

وترى أن يد الكفيف تصاحبه في عمله كما تصاحب العين الشخص البصير، وبها يستطيع أن يستخدم أصابعه؛ ليقرأ قراءة صامتة لصفحة أو أكثر؛ فيقطع بذلك ساعات الضجر الطويلة، وعلى المنوال نفسه تعين اليد الأصم، فبها يتعلم، وإذا ما كان أبكم أيضًا؛ تكلمت يداه عنه، واستخدم أصابعه لنطق الكلمات للأعين التي تتحول بدورها إلى آذان (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 26).

ثم ترى هيلين بأن كل تلك الحواس ما هي إلا خدم للقلب، فإذا ما استيقظ؛ كان الجسد في غاية التوقد، بينما يموت الجسد إذا كان القلب ميتًا، تقول هيلين: «علمت أن العمى عمى القلب وليس البصر».

لو قدر لي أن أبصر ثلاثة أيام سيكون أول شيء أنظر إليه أستاذتي آن سوليفان التي سأنعم النظر في محياها طويلًا، لا أريد أن تكون رؤيا عابرة لا تتعدى مجرد الملامح البارزة لأسارير وجهها؛ لمجرد الاحتفاظ بذكراها في مخيلتي فقط، ولكني أريد أن أدرس ذلك الوجه درسًا؛ لأقرأ فيه الشاهد الجلي على ذلك العفاف والود والصبر، الذي كانت تتحلى به وهي تقوم بمهمتها الشاقة من أجل تربيتي وتعليمي، أريد أن أرى عينيها المليئتين بالعزم والقوة التي جعلتها تقف وقفة شهم حازم أمام سائر المصاعب.. عينيها المليئتين بالرحمة والشفقة بجميع أفراد البشر (كيلر، 2016، 23).

وعندما تريد هيلين أن ترى عين الآنسة سوليفان؛ فإنها تريد أن تغوص في تفاصيلها، وما تحمله من دلالات.

كانت ثاني الأمور التي قالت هيلين بأنها ستراها لو قدر لها الرؤية لثلاثة أيام؛ النظر إلى وجه طفل من الأطفال! لماذا؟ لأخذ فكرة عن الجمال الصاعد البريء الذي يتقدم على مرحلة شعور الشخص بما ينتظره في الحياة من صراع ونزاع (كيلر، 2016، 27).

والناظر لكتبها يجد أن عناوينها كانت ناطقة بتلك الإعاقات، ولم تنظر إليها على أنها عورة تحاول أن تداريها، فجعلت بعض عناوين كتبها «من الظلام» «أضواء في ظلامي» «الخروج من الظلام» «أغنية الجدار الحجري» وهذا العنوان الأخير يوضح إلى أي مدى تنظر هيلين لنفسها وإعاقتها على أنها لا تبعدها عن كينونتها بأن تكون أنشودة بالرغم من أنها تشبه الحجر.

وترى هيلين بأن إصابة كل إنسان بفقد بعض حواسه لبعض الوقت؛ إنما هو من نعم الله عليه، -حيث إننا لا نعرف قيمة الأشياء إلا عند فقدها- فالظلمة تجعله أكثر تقديرًا لنعمة البصر، والسكون سيشعره بنعمة السمع.

أستطيع أن أعطي نصيحة للمبصرين الذين يريدون الاستخدام الأمثل لنعمة البصر؛ ألا وهي أن تستخدموا أعينكم كما لو كنتم ستصابون بالعمى غدًا، وبالطريقة نفسها تستخدمون كل حواسكم الأخرى، استمعوا إلى نغم الأصوات، وإلى تغريد الطيور، وإلى الألحان العظيمة، كما لو كنتم ستصابون غدًا بالصمم، والمسوا كل شيء تودون لمسه كما لو كانت حاسة المس ستتلاشى غدًا، واستنشقوا عطر الزهور، وتلذذوا بكل

لقمة من طعام؛ كما لو أنكم غدًا لن تستطيعوا الشم أو التذوق أبدًا (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 53، 54).

ثم تتسق هيلين مع إعاقتها غاية الاتساق حينما تعلن أن هذه الإعاقات كانت نعمة من الله، وليست نقمة، فتقول: «لقد أدركت لماذا حرمني الله من السمع والبصر والنطق، فلو أني كنت كسائر الناس لعشت ومت كأية امرأة عادية».

فأنا أعيش في عالم يغمره الفكر، وهؤلاء الذين يمتلكون كل القدرات لا يعلمون شيئًا عن الحدائق الخلابة الموجودة في عالم الظلام، وخلف جدرانه الصامتة، إن السكون يحرك جوارحي، ويستثير مشاعري؛ فالصمت نوع رفيع من الشعر (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 82).

سأل واحد من الجمهور (هيلين) -أثناء فترة عملها بالسرك-: (لو عُرض عليكِ أنْ تختاري بين الشفاء من العمى أو الصمم فماذا تختارين؟). فكان ردّ هيلين غير المتوقع: (أختار الصديق قبل الطريق). وسألها آخر: (أي العاهتيْن أشد إيلامًا: العمى، أم الصمم؟). فكان الرد المذهل: (يؤلمني أكثر الاستماع إلى الحمقى).

تقول (هيلين):

يا أيها الظلام

كم فيك من أسرار

كم فيك من غموض

في صمتك المريع

دومًا يأتي ربيع

مزدهر وديع

لا يدركه البشر

يا أيها الظلام

الله في علاه

خالق الإنسان

وواهبه الحياة

سواه من مشاعر

تحن إلى الظلام

إذا ألقى المساء

ظلاله السوداء

تبلغ الرسالة

إلى بني الإنسان

وبهدوئك الحنون

تمسح العيون

فتنسدل الجفون

وروحنا تفيء

تواقة مشتاقة

لحضنك الدفئ

دعوتها للخيال

«المنطق سوف يأخذك من ألف إلى باء، والخيال سوف يأخذك إلى أي مكان» (ألبرت آينشتاين)

بات الخيال وما زال من السبل الكبرى التي تسلكها المجتمعات المتقدمة -بتعاطيها في تربية أبنائها-؛ بغية التقدم والريادة، ويتسق هذا مع ما تؤكده الدراسات الحديثة، بأن الخيال أحد أهم الفوارق الكبرى بين الإنسان والحيوان.

ويعتبر الخيال مكونًا رئيسًا في حياة (هيلين) فحياتها التي امتلأت بالفراغات والمساحات الخالية؛ أرغمتها على أن تسدّ تلك الفراغات وهاتيك المساحات، بخيالها الذي امتد واتسع طولًا وعرضًا. كتبت كتابًا -مميزًا- بعنوان: «لو أبصرت ثلاثة أيام» تخيلت فيه ما سيكون عليه حالها خلال تلك الأيام الخيالية، أو إن شئت فقل الخوالي.

إن الخيال عين وأذن لكل من فقد أحدهما أو كليهما، فهو يكمل النواقص، ويوضح التفاصيل، التي قد تطمسها قساوة الظلام والصمت (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 18، 85).

وإذا لم نحطم أجنحة الخيال فيمكن للعقول أن تصنع عالمًا خاصًّا بها، تستحضر فيه الأشكال البديعة، والصور البهية، والمناظر الخلابة، عالمًا يحول الرتابة والكآبة إلى بهاء وسناء، عالمًا ينير سنا ضوئه ظلمة السجون (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 24).

ويولد الخيال في مرحلة الطفولة المبكرة، ويبدأ في التضاؤل مع تقدم العمر، حتى إذا وصل الطفل إلى تسع سنوات فيتضاءل بشكل كبير، الأمر الذي يعني أن القدرات العقلية أو ما يطلق عليها «التفكير في نسق مغلق» تحل محلها، ويعني ذلك تقليص الإبداع. وهذا يعني أن الخيال ليس ترفًا أو تزيدًا أو حاجة ضعيفة الأهمية بالنسبة للأطفال، وقد فطنت الأمم المختلفة إلى أهمية هذا الجانب النفسي عند الإنسان، خاصة أنه لا إبداع بدون خيال، والمدخل الفعال لتنمية الإبداع؛ هو تنمية الخيال (حنورة، 2000، 19).

ومن يطلق لخياله بعد الطفولة هم قلة قليلة من البشر، ويا للأسف!! فلا يمكن أن نقارن ما نفهمه بحواسنا بما نستطيع أن نصنعه بالتأمل بعقولنا، والنظر فيها إلى الشمس والنجوم التي تسطع بداخل ألبابنا (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 24).

ونحن ننصح الآباء والمعلمين أن يعملوا على أن يدرب الأطفال طاقاتهم الخاصة بالرؤية الداخلية (التصورية). فبعض منا يعتقد خطأ أنه يجب ألا يستغرق الرجال والنساء كثيرًا في خيالاتهم حتى يكونوا عمليين، وفي ذلك قتل لموهبة منحها الله إياناً (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 24).

مدلول السعادة لديها

«إن السعادة تنتقل بالعدوى ..لا تنتظر عدوى أحد .. كن حاملًا لهذا الميكروب» (أنيس منصور)

كانت هيلين تنظر للحياة نظرة إشراق داخلي، نظرة بها قناعة بأن ما امتلكته من جوهر ليس عند كثير من غيرها ممن يتمتعون بكافة حواسهم. لذا شعرت بالسعادة، لأنها رأت أنها تنبع من داخل الإنسان بغض النظر عن ظروفه. تقول هيلين: «معظم الناس يقيسون سعادتهم بمقاييس المتعة الجسدية، والممتلكات المادية. إذا كانت السعادة بهذه المقاييس فإن الأشخاص الذين حرموا من نعمة البصر أو السمع لا يملكون إلا أن ينكمشوا مكتوفي الأيدي في إحدى الزوايا ويجهشوا بالبكاء. لكن إذا كنت سعيدة على الرغم من كل ما حرمت منه، إذا كانت سعادتي من العمق بحيث أصبحت عقيدة، إذا كانت متغلغلة في فكري بحيث أصبحت فلسفة حياة، باختصار إذا كنت متفائلة؛ فإن شهادتي جديرة بأن تسمع حقًّا.

والعالم الجميل كما تراه هيلين يأتي من مخيلة الإنسان، لا من واقعه بكل تبعاته وآلامه «العالم الجميل يأتي من خلال مخيلتك».

إذا نظرنا للحياة على أنها كئيبة وبائسة؛ فلن تكون إلا كذلك، أما إذا آمنا بأن الأرض ملك لنا، وأن الشمس والقمر معلقان في السماء من أجل سعادة البشرية؛ فستنتشر البهجة فوق التلال، وستمتلئ العقول بالسرور، وما أحلى الحياة وأغلاها إذا آمنا بأننا ولدنا من أجل أهداف نبيلة، وبأن قدرنا أن نعمل وننجز رغم ما تفرضه علينا محدودية القدرات الجسمانية (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 81).

كما أنها تؤمن بأن السعادة ليس ما يجره الشخص لنفسه من لذة ومتعة، لكن السعادة الحقة في إسعاد الآخر «لا يحق لأحد استهلاك السعادة دون إنتاجها» «هناك سعادة كبرى في إنكار الذات ومقاومة الصعاب، لهذا أراني أحاول أن أجعل شمسي الداخلية ضوءًا في عيون الآخرين، وسعادتي النفسية بسمات على شفاههم».

غالبًا ما يُقال إن غاية الحياة أن يكون الإنسان نافعًا، وهذا أمر صحيح، ولكن السعادة هي التي تؤدي إلى النفع، وهي التي تلهمه، فمن يتمتع بالكثير من النعم، ويمتلك عقلًا راجحًا، يصلي ليلًا ونهارًا من أجل العالم، فإن هذا لن يعود عليه بالكثير إذا لم يكن يشعر بالمتعة (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 65).

حتى إذا لم نتفوق دراسيًا؛ فلنتذكر أنه قد يكون من المجدي إعانة آخر على أداء مهمة ما خير من أن نحصل نحن على درجات عالية في الدراسة، فعلاقتنا بالكتب يجب أن تأتي في المرتبة الثانية بعد علاقتنا بزملائنا، وتعاملنا معهم بكل أمانة وعطف وكرم (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 67).

وترى هيلين بأن السعادة تنبع من الداخل للخارج وليس العكس؛ فهي حالة ذهنية، وتعتمد قليلًا جدًّا على الظروف الخارجية. لذا تقول: «ازرع السعادة في نفسك وفي الآخرين، وسوف تندهش من الجمال، والثراء، والقوة التي تأتي من خلال روحك المشرقة». « كثير من الناس لديهم فكرة خاطئة عن السعادة. لن تتحقق من خلال تلبية الرغبات، ولكن بالتضحية من أجل هدف نبيل» .»إن هناك سعادة في نسيان الذات، لذلك أحاول أن أجعل الابتسامة في عيون الآخرين هوايتي».

وقد عبرت هيلين أن من اللحظات الفارقة والسعيدة في حياتها تلك اللحظة التي رجعت فيها إلى بيتها بعدما تعلمت الكلام؛ حيث كانت أسرتها في انتظارها، وقد عبرت الأم والأب والأخت –كل بطريقته-على الابتهاج الذي كانوا عليه بعدما سمعوا كلامها. هذا المعنى يؤكد فكرة هيلين وفلسفتها الحقيقية للسعادة تلك السعادة التي تدخلها على الآخر.

وترى هيلين أن الإنسان هو الذي يتحكم في أن يكون سعيدًا أو تعيسًا، «ليس هناك أي شيء في هذه الأرض يمنعك من أن تكون سعيدًا إلا أنت».

تقول .. وإذا يكتب نابليون وهو في مجد إمبراطوريته: (إنني لم أذق السعادة في حياتي) يُغنِّي الجدار (لقد عشت واستمتعت بحياتي) إذن السعادة تنبع من الداخل لا الخارج، إنها في نفوسنا لا فلوسنا، في طريقة تفكيرنا لا في ضخامة قدراتنا الجسدية والمادية.

وتقول هيلين: يتعجب كثير من الناس عندما أقول لهم بأني سعيدة، فهم يتخيلون أن النقص في حواسي عبء كبير على ذهني يربطني دائمًا بصخرة اليأس، ومع ذلك فإنه يبدو لي أن علاقة السعادة بالحواس صغيرة جدًّا فإننا إذا قررنا في أذهاننا أن هذا العالم تافه يسير جزافًا بلا غاية فإنه يبقى كذلك ولم تتبدل صورته، بينما نحن إذا اعتقدنا أن هذا العالم لنا خاصة وأن الشمس والقمر يتعلقان في الفضاء لنتمتع بهما فإن هذا الاعتقاد يملؤنا سرورًا لأن نفوسنا تتمجد بالخلق وتسر به كأنها

نفس رجل الفن، والحق أنه مما يكسب هذه الحياة كرامة ووجاهة أن نعتقد أننا ولدنا لكي نؤدي أغراضًا سامية وأن لنا حظًا يتجاوز الحياة المادية .

وتوضح هيلين أن مصادر السعادة متعددة، لا تقف عند جهة واحدة، لكن معظم البشر يقفون عند ما يفقدون، ويظنون أن سعادتهم الحقيقية فيما يفتقدون «عندما يُغلق باب السعادة، يُفتح آخر، ولكن في كثير من الأحيان ننظر طويلًا إلى الأبواب المغلقة بحيث لا نرى الأبواب التي فُتحت لنا».

نظرتها للحب والوفاء

ذهبَ الوفاءُ ذهابَ أمسِ الذاهبِ	فالناسُ بين مخاتلٍ وموارب
يغشـــون بينهـــمُ المـــودةَ والصفا	وقلوبُهـــم محشـــوةٌ بعق

(علي بن أبي طالب)

كما كانت تؤمن بأن الحب بين البشر هو مفتاح لغلق كثير من الآلام التي يحياها البشر. تقول: «أمر جيد أن يصرف الناس الطيبون كل هذا الوقت لمحاربة الشيطان؛ لكنهم لو صرفوا المجهود نفسه في محبة بعضهم؛ لمات الشيطان من الضجر».

وإذا كانت الأنانية وحب الذات تشوش على العقل، فإن الحب ومتعته يجعل الخيال حادًّا.

وقد كانت هيلين وفية جدًّا لمن ساعدوها، وفي القلب منهم آن سوليفان التي كتبت عنها كتابًا سمته (معلمتي).

وكان لوقع سوليفان عليها قويًّا، وبالتالي كان الصديق عندها بمثابة العضو الذي لا يمكن الاستغناء عنه، ولمَ لا، وكانت سوليفان نافذتها للحياة. تقول هيلين: «أنا أفضل أن أمشي مع صديق في الظلام.. على أن أمشي وحدي في النور. ولعل جبران خليل جبران قد تأثر بتعبير هيلين عندما نحت عبارته المشهورة: « كانت عمياء تسير في ضوء النهار؛ فأصبحت مبصرة تسير في ظلمة الليل».

سألوها يومًا: (إذا أبصرت ... ما هو أول شيء تريدين رؤيته؟ فقالت: أن أرى الناس الذين ساعدوني وشجعوني برحمتهم وصداقتهم).

إن الروح المعطاءة التي سيطرت على (هيلين) لم تكن تأتي من فراغ، إنها كانت نتاج مساعدات أناس كثر، ساعدوها على تذليل الصعاب التي واجهتها؛ فقابلت هذا الصنيع بقلب مفعم بالخير، فحلمت بحمله لكل البشر، دون انتظار جزاء أو شكور، ودون تمييز بين جنس أو لون، وكأنها تتمثل بالمثل الصيني: «مثلما يعود النهر إلى البحر هكذا يعود عطاء الإنسان إليه».

ثم توضح أننا نقوم بتشكيل ذواتنا سواء كان هذا التشكيل بذوات ونفوس محبة ومتسامحة، أم بنفوس مبغضة بغيضة؛ بما يستبطنه من حب؛ فتتكون الذات وفق النموذج الأول، أو تستبطنه من كره؛ فتتكون الذات وفق النموذج الثاني. تقول هيلين: «كل ما نحبه بعمق يصبح جزءًا منا».

روحها المفعمة بالتفاؤل

«يرى المتشائم الصعوبة في كل فرصة، أما المتفائل فيرى الفرصة في كل صعوبة» (ونستون تشرشل)

امتلكت هيلين روحًا مفعمة بالتفاؤل -بكل ما تحمله الكلمة من معنى- فهي ترى أن التفاؤل هو الوقود الذي يقود للإنجاز « التفاؤل هو الإيمان الذي يؤدي إلى الإنجاز. لا يمكن فعل شيء من دون أمل».

والمتفائل يحرك العالم من حوله، بينما يقف المتشائم ساكنًا فيسكن ما حوله. «كل متفائل يتحرك جنبًا إلى جنب مع التقدم ويعجل به، في حين أن كل متشائم يجعل العالم في حالة جمود».

وتقول: «كن منشرح الصدر دائمًا ولا تفكر في إخفاقات اليوم، ولكن اهتم بالنجاحات التي ربما تأتي في الغد القريب». وتقول: «إن لكل شيء جماله حتى الظلام والصمت، فقد تعلمت أن أكون راضية وسعيدة في أي ظرف يمر بي، أن قلبي ما زال عامرًا بالعواطف الحارة لكل إنسان ولساني لن ينطق بكلمات مريرة أبدًا، أن هناك سعادة في نسيان الذات، لذلك تشاهدونني أحاول أن أجعل الابتسامة في عيون الآخرين هوايتي».

ثم تدعو البشر بأن يتسموا بالإشراق؛ فيكون الكون مشرقًا. أو بمعنى آخر كن جميلًا؛ ترى الوجود جميلًا. «ابقِ وجهك في اتجاه الشمس ولن ترى الظلال «.

كانت (هيلين) ذات عقل يسبح في اللاحياة، ووجدان يسير في اللامحسوس؛ فقادوها إلى كل معاني الحياة. وإذا كانت قد فقدت بعضًا من معاني الحياة؛ فقد أعطت للحياة معنى.

إيمانها بقيمة المعرفة

«القراءة تمد العقل فقط بلوازم المعرفة، أما التفكير فيجعلنا نملك ما نقرأ» (جون لوك)

لم تجعل الإعاقة هيلين تتقوقع على نفسها وتنزوي، بل استمتعت – كمثيلاتها من العاديين- بجملة من الهوايات كان في مقدمتها القراءة، والتجديف، والسباحة، ورياضة الشراع، وركوب الخيل، والدراجات، كما كانت تحب التريض بين الأشجار وعلى شاطئ البحار والأنهار.

وآمنت كيلر بأن المعرفة بمعناها العميق ليس مكانها مؤسسات التعليم، فهي بالكاد تمدنا بالمعلومات، لكن الأفكار تأتي من مكان آخر غير المدارس «الكلية ليست المكان المناسب للحصول على الأفكار»، وهذه الدعوة نادى بها بعض التربويين حديثًا مثل (إيفان إيليتش) الذي دعا إلى مجتمع بلا مدارس. لذلك تعجبت من تعبير هيلين لما تصور وضعها في الكلية بأن «يدها كانت مشغولة بعملية السمع أثناء المحاضرة». هذا التعبير العميق والبليغ في الوقت ذاته؛ يجسد تماهيها حول الأفكار في قاعة الدرس، وليس مجرد تلقف الكلمات والمعاني.

سأستمر في القراءة بكثافة بقدر المستطاع؛ حتى أثري من معلوماتي عن الكلاسيكيات، ولن أفقد اهتمامي بالتاريخ والقضايا الاجتماعية، وسأظل أدرس طوال العمر حتى لا أتوقف عن متعة الدراسة (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 29).

وترى (هيلين) أن الناس لا يحبون التفكير، لو أن أحدهم فكر؛ فسوف يؤدي التفكير إلى نتائج، والنتائج غير محببة دائمًا.

كما أنها ترى «أن المعرفة الحقيقية حب ونور وبصيرة» أي انعكاسها على سلوك الشخص تجاه نفسه والآخرين.

ربما نعطي أنفسنا دقائق معدودة كي نقرأ فيها كل يوم، لكن تلك الدقائق من شأنها أن تقودنا عبر عواصف الأفكار والمعايير المتضاربة، وتحمينا من قسوة بعض الإحباطات، كما أنها ستكشف لنا عن بعض الزيف المهلك الذي يحاصر حضارتنا وحياة أمتنا، ويعصف بها تمامًا كما تفعل الأنانية، إن أذى الرغبة في التفكير يشابه تمامًا أذى الرغبة في امتلاك قلب (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 17).

وتؤمن هيلين بأن العلم استطاع حل إشكاليات كثيرة؛ لكنه لم يستطع أن يحل إشكاليات النفس البشرية «العلم تَوَصَّلَ لعلاج معظم الشرور، ولكنه فشل في علاج أسوأ هذه الشرور؛ ألا وهو اللامبالاة تجاه النفس «.

فحين أقرأ أكثر الأجزاء روعة من الإلياذة؛ أشعر بأنها ترفعني كثيرًا فوق ظروف حياتي الصعبة، وتجعلني أنسى تمامًا كل معوقاتي البدنية، بصورة أشعر معها كما لو كنت أملك كل ما في العالم من الحرية والانطلاق (كيلر، د. ت، 141).

وقد كانت الكتب بالنسبة لها هي الحياة، فهيلين على المستوى الشخصي اكتسبت هذا الصيت من خلال معارفها التي استقتها من الكتب. تقول: «كيف أسأم ما دامت الكتب حولي!». وقد كانت الكتب خير جليس لهيلين كما قال المتنبي. «إن الكتب بخلاف الناس، لا تتعب ولا تتضايق، فتظل تحدثني المرة تلو الأخرى عما أود معرفته».

عندما سئلت عن سبب غرامها بالكتب أجابت: لأنها تحدثني عن الكثير من الحقائق الممتعة عن الأشياء التي لا أستطيع مشاهدتها، كما أن الكتب بخلاف الناس لا تتعب ولا تتضايق فتظل تحدثني المرة تلو الأخرى عما أود معرفته.

كما كانت (هيلين) تستمتع بالقراءة، فكانت تنادي بـ(القراءة الذكية)، تلك القراءة التي تستمتع بها بتوهج الكلمات، وتتماهى مع النص تماهيًا كأنه جزء منها، وكأنها بعض منه. كانت تقرأ ذات يوم –بطريقة برايل- فوقعت أناملها على كلمة (كلب)؛ جرت نحو كلبها، وأمسكت بمخالبه، وجعلته يلمس الأحرف.

ولهيلين رؤية وفلسفة في التعاطي مع القراءة، فالقراءة العشوائية ضررها أكثر من نفعها، أو على الأقل لا يرجى نفعها.

يجب أن تكون قراءتنا لأغراض واضحة، ويحكمها نوع من النظام، ويلزم أن نقرأ من أجل التفاهم والتسامح، والإلمام بالقيم التاريخية، ولإصدار أحكام ناقدة، فإذا ما قرأنا مقالة ما، أو أي كتاب ثقافي بعناية؛ فينبغي أن نحاول تطبيق ما قرأناه في مواقف الحياة وسير الأحداث (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 16).

لقد قابلت العديد من النساء اللواتي يقرأن بنهم، ولكن تلك القراءة تبدو لي أنها تخضع لمدى اهتمامهن بالموضوع، أكثر من أهمية الموضوع في حدّ ذاته، وهذا النوع من القراءة يحيا وقتيًا ولكنه مهلك على طول المدى ويشير (john Wesley) إلى هذا النمط من القراءة بأنه تدمير وتدليل غير صحي للذات، فمن المؤكد أنه لا ينتج إلا عقولًا تفتقر إلى المعرفة الضرورية، التي يجب أن تنتقل للأجيال الأصغر (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 16).

منظورها للفن والجمال

«يعنى العقل بالحقيقة، وتهتم الأخلاق بالواجب، أم الذوق فإنه يوصلنا إلى الفن والجمال» (إدغار)

جعلت هيلين يومًا كاملًا للفنون والآداب لو قدر لها أن ترى لمدة ثلاثة أيام. آثرت فيها أن ترى المتاحف للوقوف على مظاهر تقدم الإنسان وآثاره عبر مختلف العصور، فقد تعرفت على بعض منها باللمس، مثل تمثال الشاعر اليوناني (هوميروس)، واللوحات الجبسية لـ(مايكل أنجلو)، وكذا منحوتات النحات الفرنسي (رودان)، ووجه الممثل الأمريكي (جوزيف جيفرسون).

فهي ترى أن المتاحف هي الأمكنة التي تستحق من المرء أن يستعمل بصره، غير أن معاني تلك الفنون وهي مرئية؛ أفضل منها وهي ملموسة. والتقدير الصحيح والعميق للفن من شأنه أن يعمل على تربية حاسة النظر.

سيكون علي أن أنظر بإمعان إلى الصور المرسومة من القماش التي هي من عمل (رافاييل)، و(ليوناردو دافنشي)، و(تيتيان). سأقيم لعيني عيدًا

حينما أسمح لهما بأن تقفا قليلًا أمام اللون الدافئ لـ(فيرونيز)، وأن تكتسبا نظرة للطبيعة من (كورو)، وبأن تدرسا أسرار (إل غريكو) (كيلر، 2016، 35، 36).

ولم تنس هيلين المسرح والسينما، فقد أعطتها جزءًا من وقتها فأفردت له نصف يوم، ففي الأيام الثلاثة التي لو قدر لها أن تبصر لكان مساء اليوم الثاني للمسرح والسينما؛ تستمتع بـ(هاملت) وحركاته الرشيقة و(فالسطاف) القوي الجسم. وهكذا فإنه في هذا المساء من يومي الثاني لرؤيتي الخيالية ستزيح النوم عن بصري الرسوم والخطوط العريضة للأدب الدراماتيكي (كيلر، 2016، 39، 40) كما أنها جعلت مساء يومها الثالث أيضًا للمسرح حيث مشاهدة تمثيلية هزلية؛ لكي تقف على واقع الكوميديا في الفكر الإنساني (كيلر، 2016، 46).

والحاجة إلى التعبير الفني كانت من الضرورة بحيث تضاهي الحاجة إلى الطعام، والمأوى، والأولاد.

يحكى لي دائمًا عن عدد من الناس من بينكم أيها المبصرون لا يهتم بعالم الفنون هذا، وأنه بالنسبة لكم يظل عالمًا مجهولًا، بل ليلًا مظلمًا، فهذا العالم لا يرى النور، ولا يحظى بمن يحاول اكتشافه(كيلر، 2016، 37).

ومما لا شك فيه أن الجمال يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالحواس، فهي – الحواس-الدالة عليه، أو إن شئت فقل: الدالة على جُلّ الحواس. وقد وضحت هيلين ذلك.

تقول: يعتقد أهلي ومعهم بعض الناس أن من غرائب الأمور أن أزعم أنني أتمتع بمظاهر الجمال في شلالات نياجرا وعجائب الطبيعة الأخرى، وهم دائمًا يسألونني: ما الذي يعنيه هذا الجمال، وما الذي تعنيه الطبيعة التي تتحدثين عنها بالنسبة لك؟ إنك لا تستطيعين رؤية الأمواج تنحدر نحو الشاطئ، أو سماع هديرها.. أؤكد بوضوح، وبما لا يحتمل التأويل أنها تعني كل شيء بالنسبة لي؛ فأنا بحواسي لا يمكنني أن أفهم الحب أو الدين أو حسن الخلق أيضًا، لكنها جميعًا تزيد من فهمي للحياة. وهكذا الأمر بالنسبة للجمال والروعة والطبيعة! (كيلر، د. ت، 93).

وهيلين تستمتع بكل فصول العام، فللصيف وحرارته روعته، وللشتاء وصقيعه بريقه، وهي ترى في كل فصل من الفصول شيئًا يميِّزه عن الآخر.

والطقس مهما اختلف حاله؛ فإن له جماله، وإنه لا يوجد في الحقيقة طقس سيئ، وأن الطقس السيئ ليس إلا خرافة، اختلقها الناس الذين لا يحبون تباين الطقس وتقلب الأيام (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 21).

وقد دأبت معلمتي منذ وصولها على أن تظهر لي الجمال الماثل في كل شيء، وسعت دائمًا إلى ملء حياتي بالحب والمرح والبهجة والهناء، وحرصت على جعلها ذات معنى وهدف؛ لكي أصبح -برغم ظروف إعاقتي-مواطنة مفيدة لمجتمعها لا عالة عليه (كيلر، د. ت، 46)

وإذا ما استطعنا أن ندرك القوى الفردية التي بداخلنا لصناعة أشكال ووضع ألوان؛ فسيكون لدينا إحساس بهيج بجمال الأشياء التي نألفها، والأعمال المصنوعة يدويًا مصبوغة بالصبغة الفردية، وتحمل الحميمية بين طياتها، وتلك الخاصتان غير موجودتين في المنتجات المتقنة التي تقوم بها الماكينات. ولقد كان للنسيج تأثير كبير على المرأة، فلقد جعل أصابعها مشغولة دائمًا، وخفف من حركتها، وحرر من أفكارها حينما كانت تجول بخاطرها، أو تستريح في عمل محبوب لها (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 18، 19).

دعوتها للإيجابية

«إن أجسامنا تحتوي على ما يعرف باسم الصيدلية الداخلية، وعندما تكون توقعاتنا وأفكارنا إيجابية فإن هذا يرفع من كفاءة جهازنا المناعي، ويفرز الجسم مواد مهدئة داخلية تعمل على خفض التوتر النفسي والألم، كما تساعد على حث طاقة الجسم وتدعيمها حتى تحت أقصى ظروف الضغط» (ليونيل تايجر)

آمنت (هيلين) بأن داخل كل منا طاقة وهبه الله إياها، وهذا المخزون من الطاقة الإنسان هو الذي يستخرجه لنفسه، وبالتالي لا مكان للتواني والتراجع بحجة ضعف القدرات والطاقات. « لقد وهبني الله الكثير حتى أنني ليس لدي وقت للحزن على ما حرمني إياه». وبالتالي كن إيجابيًا، « فالإيجابية لا تعني عدم الحزن، ولكن تعني فن التعامل مع الحزن.» ولا تستسلم للمشاكل والعقبات «لا تحن رأسك لمشاكلك، ولكن ابقها عالية، وحينها سترى العالم مستقيمًا أمامك».

والبدء بالعمل هو أفضل رسالة لديمومة دورة العمل، لا تطلب من غيرك أن يجد ويعمل وأنت في حالة سكون، لأن من لا يقنعك لحظه؛ لا ينفعك لفظه. « إذا كنا لا نفعل ما بوسعنا، كيف يمكننا أن نتوقع الكثير من قبل الآخرين؟».

ولكي تحقق ما تصبو إليه، يكون من خلال الشيء نفسه بالجد والمبادرة، حتى لو أخذ منا وقتًا فهذا متوقع. « تستطيع أن نفعل أي شيء لو التزمنا به لوقت كافٍ».

وإذا كانت طاقاتك وقدراتك تمكنك من السبق والتقدم؛ فمن الحمق أن تمجد تلك الطاقات والقدرات وتكتفي بالسير مع الركب «لا يجب أن نزحف عندما نشعر بشيء يدفعنا للطيران « «أنا مشتاقة لإنجاز مهمة كبيرة ونبيلة، ولكن مهمتي الرئيسية إنجاز المهام الصغيرة كما لو كانت كبيرة ونبيلة».

نظرتها للعمل وأداء دور في الحياة

«العمل يبعد عن الإنسان ثلاثة شرور: السأم، والرذيلة، والحاجة» (فولتير)

رأت هيلين أنه ينبغي أن يكون لها دور في الحياة، وعمل تقوم به، كانت طموحة بصورة رسمت لنفسها فيها أن تكون رئيسة للولايات المتحدة الأمريكية!، وهذا يدل على جسارتها وجرأتها، لكنها في الوقت ذاته عرفت الأدوار التي يمكن أن تؤدي فيها دورًا في المجتمع يتسق مع إعاقتها، ويمكن بموجبه أن توظف خبراتها الطويلة في مجال الإعاقة.

فقد رأت أنه قبل كل شيء سأولي اهتمامي الأكبر للصم والمكفوفين، وستكون احتياجاتهم سببًا آخر يدفعني للترحال، فكثيرًا ما حلمت بالإبحار في نهر الراين، وتسلق جبال الألب، والتجول وسط الآثار اليونانية والرومانية؛ لأستمتع بكل ما قرأته عن حكايات الرحالة، ولقد أصبح لدي الآن دافع آخر للترحال، فإضافة إلى المتعة التي تدور بمخيلتي، فإنني أعتقد بأنه يمكنني أن أقدم العون للمعلمين في بعض البلاد الأوروبية كي يستفيدوا من خبراتي في التدريس للمكفوفين، وتقديم كل الدعم لهم (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 30).

وأغلب ظني أنني سأعيش في الريف، وسأدعو أحد الأطفال الصم إلى منزلي، كي أعلمه ما تعلمته من السيدة (آن سوليفان) فلقد راقبت طريقتها في التدريس عن كثب لعدة سنوات، ولقد بهرني أسلوبها وأفعالها، التي مكنت طفلة معاقة مثلي أن أبصر بروحي وأفهم بقلبي (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 30).

وأعتقد بأنني سأتمكن من استيفاء حاجات ذلك الطفل الأصم، ومن مساعدته على التغلب على الصعوبات التي يلاقيها، فأنا أعلم جيدًا الظلام الذي يراه، والسكون الذي يسمعه، وأعلم الأماكن الوعرة التي سيقابلها في رحلته، وأعرف كيف يمكنه أن ينجو منها، وهذه أفضل طريقة يمكنني بها أن أستمتع بتقديم شيء للآخرين، سبق أن قدمه لي الآخرون (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 30).

كما أستطيع أن أعتني بالمرضى، فلقد مررت بمواقف عديدة استخدمت فيها يدي لتخفف الألم باستخدام ما يسمى المساج، وأزعم بأنه يمكنني أن أدرس هذا الفن يومًا بعد يوم، من الممكن أن أجيد ذلك، وحتى إن لم أمتهن تلك المهنة؛ فيمكنني أن أعلم ذلك الفن للمكفوفين (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 31، 32).

لم تفكر (هيلين) يومًا أن تكون عالة على أحد، بل ستسعى بكل ما أوتيت من قوة لأن تعمل، ويكون لها دور في الحياة، لكنه ليس عمل من أجل القوت، وإنما ذاك العمل الذي يمكن أن يجعلها تقدم شيئًا تتميز فيه؛ حتى لو كان هذا العمل يُنظر إلية بامتهان «عمل مساج»، طالما ستكون فيه مميزة ومتميزة بما تملكه من يد حانية، تحمل أنامل رقيقة.

ثم تجدها تتفوق على نفسها بإبراز ما يمكن أن يقوم به الكفيف بأنامله التي يتفوق بها على غيره من المبصرين؛ فيؤدي عملًا ربما يتميز به، ويصبح خصيصة للمكفوفين.

إن أيادينا –نحن المكفوفين-أدوات نحيا بها، وإذا ما تم تدريبها بكفاءة؛ فيمكنها أن تثبت أنها ذات نفع أكبر من العين والأذن، وعليه فإذا عملت في مهنة المساج أنا أو غيري من المكفوفين؛ فإننا نستطيع أن نوظف تلك الأيادي التي تشعر بالسرور والغبطة عندما تتحرك وتعمل، نوظفها في سبيل إراحة الآخرين (دعـدور؛ والمرسـي؛ وسليـم، 2009، 32).

ولما تعرّضتْ هيلين وسوليفان لأزمة مالية. استغل صاحب (سيرك) تلك الأزمة وعرض عليهما فكرة تخصيص فقرة لهما على خشبة السيرك.

تبادلتْ الفتاتان الدهشة المعجونة بالاستنكار. شرح الرجل الفقرة: واحد من الجمهور يسأل سؤالًا. سوليفان تُترجم السؤال بأصابعها لهيلين التي ترد على السؤال بأصابعها. وافقتْ الفتاتان.

دور المرأة في المجتمع

«المرأة هي نصف المجتمع، وهي التي تلد وتربي النصف الآخر» (مثل فرنسي)

ترى عالمة الاجتماع الامريكية (إيليز بولدنج) أن هناك مجالات ثلاثة أسهم عمل المرأة فيها في خلق ما تسميه «مجتمعًا مدنيًّا»، يقوم على الاحترام المتبادل، المجال الأول: يتعلق بالطفل والتعليم، ففي كل المجتمعات تقريبًا تضطلع المرأة بمسؤولية تعليم الأطفال حتى سن السابعة، ويجمع أخصائيو علم النفس على أن رؤية الطفل للعالم تتشكل خلال تلك العوام. ويتصل المجال الثاني بالدور الاقتصادي المستتر للمرأة، وقد يكون مجال هذا الدور هو المطبخ أو الحديقة، تلك الوحدة الإنتاجية المصغرة التي لعبت دورًا حاسمًا في المجتمعات الزراعية. أما المجال الثالث فقد تم إغفاله كذلك إلى حد كبير، فالمرأة كانت وما تزال «عماد المجتمع»، وقد اضطلعت بهذا الدور في الحياة الخاصة، وفي الحياة الأسرية، بل وحتى في تحالفات الأسر الحاكمة بين القرى أو المدن على مر العصور (باربيري، 1993، 21).

تنظر (هيلين) للمرأة نظرة واقعية، ففي الفترة التي عاشت فيها كان نصيب الفتيات من التعليم محدودًا، لذلك كانت ترى بأن المرأة عليها أن تجاهد؛ من أجل نيل قسط من التعليم. وكانت ترى أن أهم دور يمكن أن تقوم به المرأة أن تتعلم كيف تربي أطفالها.

تقول هيلين: لقد حان الوقت للمرأة كي تخرج من تابوت المؤسسات المتحضرة، كي تستنشق عبير الحياة، وتعيش على الأرض مخلوقة حية مثل الرجل، وأول شيء يجب أن تفعله؛ أن ترفع الستار وتنظر بكل حب إلى عقل طفلها، فواجبها أن تدرس طفلها لتعرف إمكاناته وقدراته، وحتى تستطيع أن تحقق ذلك؛ فعليها أن تدرس الحقائق التي تتناولها علوم مثل البيولوجيا وعلم النفس، وعلم اليوجينيا (علم تحسين النسل)، وعليها أن تدرس مفاهيم مثل: العادات، والدوافع، والنمو؛ ذلك لأن النمو السليم للطفل يحتاج كفاءتها (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 75).

وترى (هيلين) أن المرأة يتعين عليها أن تبحث عن ميادين تفردها، وتبتعد عن مزاحمة الرجال في الميادين الخاصة بهم.

فمن خلال ملاحظاتي الدقيقة، أستطيع أن أقول: إن معظم النساء الأمريكيات يحاكين سيكولوجية الرجل، فهن يستهدفن القيام بما يقوم به الرجل، ويبدو لي أن هناك جانبًا من المغامرة لم تخض فيه المرأة بعد، وهو الجانب الذي يصعب على الرجل أن ينافسها فيه؛ ألا وهو تثقيف أنفسهن (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 69).

وكثيرًا ما كتبت (هيلين) عن (إليزابيث كادي ستانتون) التي خاضت نضالًا كبيرًا ضد القوانين والتقاليد المجحفة ضد المرأة. وكذا (لوس سنون) أول امرأة احتفظت باسمها، ولم تغيره بعد زواجها باسم زوجها كما كان متبعًا إذ ذاك، وأسست مجلة المرأة. وكانت معجبة بدور (مارثا بيري) تلك الفتاة التي آثرت عدم الاستمرار في إنهاء دراستها، وأقلعت عن كل الملذات من أجل الفقراء في محيطها، ورفضت الزواج من الوجهاء، من أجل منح عشرة آلاف فتاة فرصًا لحياة أفضل.

تربية الأطفال

«لا تمنح أطفالك إلا الأفكار التي ستجعل حياتهم ممتعة وعظيمة وشريفة» (هيلين كيلر)

حدثني عن أطفال أي أمة؛ أخبرك عن ماضيها، وأصف لك حاضرها، وأنبئك بمستقبلها. هكذا قال الفيلسوف قديمًا. لذا كانت (هيلين) مهمومة بأن تهتم بتلك الفئة؛ الذين يمثلون نصف الحاضر وكل المستقبل.

لقد كان لـ(هيلين) فلسفة في تربية الطفل، قد تكون ليست متفردة؛ لكنة في تلك الفترة يمكن أن تكون من السبّاقين إلى لفت الانتباه إلى تلك الممارسات.

تُعتبر حركة الطفل المستمرة شيئًا ضروريًا كي ينمو الطفل جسمانيًّا بشكل صحي. ولا يفهم من ذلك أن الطفل ينبغي أن يترك لأن يفعل ما يريده بالطريقة التي يريدها، فلم تقصد (هيلين) ذلك، ولكنها رأت أنه من الخطأ مقاومة غرائز الطفل الطبيعية.

وترى أن هناك طريقتين لتدريب الطفل على الطاعة: الأولى: هي الطريقة التقليدية التي تقوم على الإكراه والعقاب إذا حدث عصيان، والثانية: هي البحث عما يستطيع الطفل أن يقوم به، بمعنى آخر، معرفة الوقت الذي يسعد فيه الطفل عندما يطيع ما يطلب منه، وعند تحديد تلك المواقف؛ يمكن بكل سهولة تحديد عادة الطاعة عنده، لأنه تعلمها بشكل طبيعي وغير متكلف، فالحقيقة أن تشكيل العادات الحسنة أو حتى السيئة شيء سهل جدًّا إذا حدث منذ البدايات الأولى مع الطفل الصغير (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 56).

ولأن (سوليفان) قد غرست في (هيلين) البهجة إبان تعليمها، -وقد عرضنا ذلك في الفصل الثالث تحت عنوان بهجة التعلم-؛ فقد كانت حريصة على أن نغلف نحن المربون حياة أطفالنا بالبهجة والمرح.

ينبغي أن ندرب الطفل باستخدام أساليب تلقائية مرحة، نطلب فيها منه أداء حركات بسيطة، وعلينا أن نتجنب في تدريباتنا له كل ما يعلمه عدم ضبط النفس، أو عدم الاعتماد على النفس في الأداء. وعندما نقوم بعمل الأشياء البسيطة للأطفال نيابة عنهم؛ فنحن بذلك نقتل عندهم روح المبادرة، ونحرمهم من اكتساب عادات الانضباط، وإذا أعطينا الطفل هذه الفرصة؛ فسنكتشف أنه سيستغل كل فرصة ليقوم فيها بالتحركات كي ينجز مهام حياته اليومية (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 56).

كما أن (هيلين) كانت متمردة على ما يمكن أن يطلق عليه «السير وفق قطبان السكك الحديدية)، وهي طريقة ينتهجها معظم المربين –لاسيما من المحافظين- الذين يريدون للطفل أن يسير وفق ما خططوا له أو رسموا له، وكأنه قطار كتب عليه أن يسير وفق قطبين لا يملك الخروج عنها، وإن خرج عنها؛ فيكون الهلاك المحقق!

فيقع الآباء والمعلمون في خطأ فادح، إذا طلبوا من الطفل أن يتبع نمطًا محددًا من التصرفات؛ لأن الطفل يصبح سلبيًّا ومتمردًا، ويرفض إطاعة أبسط الأوامر التي ينبغي عليه أن يطيعها، وأرى أن الكبار يخفون توترهم وعدم صبرهم تحت عباءة النظام (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 57).

ونقد الطفل أمام الآخرين، لا سيما إذا كانوا من الغرباء، يكرس عنده الانطواء والعزلة والسلبية؛ وبالتالي يقلل من فرص إبداء رأيه، والتعبير عن ذاته، مخافة اللوم والتأنيب.

ولما كان النقد –قليله وكثيره-مقبرة لوجدان الطفل؛ فقد حرصت (هيلين) على لفت انتباه المربيين على عدم اللجوء إليه بأي حال من الأحوال.

فتقول (هيلين): ولا تنتقد أفعال طفلك أمام الآخرين، ولا تتظاهر أمامه بأنك مهتم به، وأنت في الحقيقة مشغول عنه؛ لأنه سيدرك ذلك وسيعلم عدم صدقك بما يشعرة بعقدة النقص، أما عندما يراك وأنت تستمع إليه بإخلاص؛ فإنه سيشعر بالثقة (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 59).

تماهيها مع الإنسانية

«يجب أن لا تفقدوا الأمل في الإنسانية. إن الإنسانية محيط، وإذا ما كانت بضع قطرات من المحيط قذرة؛ فلا يصبح المحيط بأكمله قذرًا» (غاندي)

كانت هيلين مؤمنة بفكرة الإنسانية بمعناها الشامل، ليس بشكل عرقي أو فئوي، -عكس ما يرشح على مكنون أصحاب الإعاقات-فلم تكن تجنح إلى الوحدة أو الفردية، بل هي آمنت بأن الفردية لا يمكن أن تحدث تطورًا ملموسًا، وإنما التكاتف والتعاضد هو الذي يحدث فرقًا «وحدنا يمكن أن نفعل القليل جدًّا؛ معًا يمكننا القيام بالكثير».

لقد وجدت نفسي بالفطرة محبة للعمل مع الرجال والنساء في كل مكان، دون أن أسأل نفسي: هل يجب أن أعمل من أجل المسيحيين، أم اليهود، أم البوذيين؟ ولكني كنت أقول: حكمتك يا إلهي، أعني على أن أخفف من آلام عبيدك، وأن أجلب لهم البهجة والسرور (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 40).

وعلى الرغم من رفضها لفكرة الفردية والتمحور حول الذات، وضرورة العمل المشترك، إلا أنها ترى أن كل شخص مطالب بأن يقوم بما يناط به «أنا واحد فقط، ولكن لا يزال أنا واحد. لا أستطيع أن أفعل كل شيء، ولكن لا يزال يمكنني فعل شيء، ولأني لا أستطيع أن أفعل كل شيء فأنا لن أرفض القيام بالشيء الذي يمكنني القيام به». وبالتالي جمعت هيلين بين الفردية والجماعية في الأوضاع البشرية؛ حسبما يقتضي الوضع.

في هذا العالم المملوء بالتعقيدات والعقائد والفلسفات كافحت –مثل غيري-حتى أجد لنفسي مكانًا في عالم المنفعة، إنني أؤمن بأننا نبدأ مشوار الجنة الآن ومن هنا، إذا ما كانت أعمالنا موجهة لصالح الآخرين بحق، ولا يوجد عمل نافع لا يستهدف صالح البشرية (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 42).

وعندما أقول كلمة الحب؛ فأنا لا أقصد مجرد عاطفة مبهمة بلا هدف، ولكني أقصد الرغبة في عمل الخير، مقترنة بالحكمة، ومطبقة في كل الأحداث والأفعال، وحيث إن اللّه باقٍ دائم وخير مطلق؛ فهو ينعم على كل فرد بصفات منه لدفع الشر، ودائمًا ما يهدينا إلى سبل جديدة لتنمية البشرية، وإلى قنوات تقودنا نحو تطور الإنسانية (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 41).

كما ترى هيلين أن المبصر الحقيقي الذي يرى متطلبات من حوله، والمنصت الحق من يسمع متطلبات البشر «كل واحد منا هو مكفوف وأصم حتى يتم فتح أعيننا على زملائنا، حتى تنفتح آذاننا على سماع أصوات البشرية».

كما تؤمن هيلين بأن الناس كل الناس من أصل واحد، وما تراه اليوم سيدًا فجذوره كانت مستعبدة، وما تراه اليوم مستعبدًا فجذوره كانت تتسم بالسيادة، فهذا حال البشر سمو وانحطاط، ودوام الحال من المحال. تقول هيلين: « لا يوجد مَلِكٌ لم يكن من أجداده عبد، ولا يوجد عبد ليس بين أجداده ملك».

ومما يثير غضبي وألمي أن يرضى الناس الطيبون بسكنى المنازل الجميلة وبالتمتع بالصحة الطيبة التي تكفل لهم الراحة وتضفي عليهم أمارات الوسامة والأناقة، بينما هناك أناس آخرون يضطرون للعيش في منازل قذرة مظلمة، فتبدو عليهم مظاهر القبح والعيش، ويسيطر عليهم الخوف والقلق والإحساس بالذل. ومما يثير غضبي وألمي أيضًا أن الأطفال الذين يلعبون في تلك الحواري الضيقة ليس لديهم من الملابس ما يكفي لستر عوراتهم، وليس لديهم من الطعام ما يدفع عنهم غائلة الجوع (كيلر، د. ت، 156، 157).

إن أشد شيء زعزع إيماني، كان عندما تعلمت أن هناك الملايين من أصدقائي عليهم أن يعملوا طوال الوقت؛ حتى يحصلوا على الطعام والمأوى، وحتى يتحملوا أعباء الحياة الطاحنة، ثم يموتوا دون أن

يتذوقوا متعة الحياة، ومن ثم تلاشى إلى الأبد إحساسي بالأمن، ولن أقوى على استعادة إيماني المتوهج في سنوات شبابي؛ بأن الأرض هي البيت السعيد لكل البشر (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 36).

ولا يوجد ألم أشد من أن ترى الأصدقاء وهم يبكون بحرقة في ظلماتهم، وأنت مكبل بالقيود ولا تقوى على الذهاب إليهم، هذا هو الانفصال عن الناموس الاجتماعي الذي خلقنا عليه، (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 28).

هبطتُ الأرض عُريانًا

وأنت هبطـتَ عُريانًا

فما ملّكت مـن دونـي

بهـا حقـلًا وبستانًـا

ولـم أُولـد بمتربتـي

وتـولـد أنت ملآنًـا

فقـد سميتُ إنسانًـا

كمـا سميت إنسـانًا

(علي حمد)

دعوتها للحرية

«البلبل، على ضعفه وصغره، هو بطل الحرية، ما أودع قفصًا إلا ومات فيه غمًا أو انتحر يأسًا»(ولي الدين يكن)

إن قضية الحريات هي أم القضايا التي تشغل ذهن أي مفكر أو فيلسوف، ويندر أن تجد مفكرًا لم يتعرض لتلك القضية بشكل أو بآخر.

وكانت هيلين من المفكرين الذين جعلوا الحرية نصب أعينهم، الحرية بمعناها الواسع. «أنا لا يهمني حقًا شيئًا في العالم، سوى الحرية في

جميع أجزاء الحياة – الحرية أن تنمو عقليًّا وروحيًّا، بعيدًا عن التقاليد والمعايير التعسفية».

لقد كان الآباء الرواد في مخيلتي الطفولية رجالًا شجعانَ وكرماء للغاية، وقد أعجبني فيهم سعيهم إلى وطن جديد في أرض غريبة، وآمنت بأنهم كانوا يتطلعون إلى تحقيق حرية زملائهم في الإنسانية، إلى جانب حريتهم هم، لكن أدهشني وأثار إحباطي بعد ذلك بعدة سنوات أن أعلم بأعمال الاضطهاد التي اقترفها هؤلاء الآباء الرواد، تلك الأعمال التي تجعلنا نشعر بالخجل، في الوقت نفسه الذي لا نزال فيه نعبر عن إعجابنا بشجاعة ومقدرة هؤلاء الناس الذين ورثنا عنهم بلادنا الجميلة (كيلر، د. ت، 53، 54).

ويتضح مما سبق أن هيلين كانت متسقة مع نفسها حينما عبرت عن امتعاضها من أعمال الاضطهاد التي مارسها الجيل الأول من الأمريكان، لكن في الوقت نفسه لم تتنكر لفكرة الوطن الذي تربت وترعرعت فيه، لذا لم تنس أن تذكر مناقب وشجاعة هذا الجيل الذي انتقده لممارساته.

وتؤكد هيلين لمن يريدون نيل حرياتهم ألا يلتفتوا إلى قيودهم. «نادرًا ما أفكر في قيودي، وأنها لن تجعلني حزينة أبدًا». وتؤكد أيضًا بأن الحرية تنتزع ولا تمنح «إذا قررنا في أذهاننا أن هذا العالم تافه يسير جزافًا بلا غاية يبقى كذلك ولن تتبدل صورته».

ثم توضح هيلين جوهر الديمقراطية الحقة « يتخيل البعض أننا نعيش في ظل الديمقراطية. لكن ليس هذا صحيحًا، فالديمقراطية تعني الفرصة الكاملة للجميع. إنها تعني أن كل طفل له فرصة في أن يكون معافى ويتغذى تغذية جيدة ويتلقى تعليمًا جيدًا ويبدأ حياته بصورة صحيحة. إن الديمقراطية تعني أن لكل إنسان صوتًا في صنع القوانين وممارسة الحقوق، وأن البشر يستمتعون جميعًا بثمار عملهم. إن هذه الديمقراطية لم توجد قط.»

وتوبين الخديعة الكبرى التي تعيشها معظم الشعوب «نحن لسنا أحرارًا وديمقراطيتنا ليست سوى اسم ! .. فما معنى أن ننتخب؟ كل ما نفعل أننا نختار بين ناكر ونكير».

دعوتها للسلام العالمي

«آه أيها السلام، كم من حرب شُنت باسمك» (ألكسندر بوب)

بلورت (هيلين) أفكارها عن السلام في الفترة التي كان فيها سباق التسليح بين الأمم –لاسيما الولايات المتحدة الأمريكية-على أوجه، مخلفًا ترسانات من الأسلحة، لو قدر استخدامها؛ لحولت الكرة الأرضية إلى كتلة رماد، ولا شك أن هذا التسابق الدولي قوض من فرص نشر ثقافة السلام بين الحكومات، وإن كان قيامه بين الشعوب غاية يبتغيها الجميع.

وعند (هيلين) إيمان راسخ بأن السلام هو السبيل الأوحد للتعايش الحضاري بين الشعوب، وهذا السلام يحتاج إلى قناعة وإخلاص بأنه الطريق الأوحد لتوحيد الإنسانية. وأن أحد الأساليب والطرق التي تعمق ذلك في ذاكرة الشعوب ووجدانها؛ التاريخ.

وتعتبر (هيلين) أول من طرق هذه النقطة المتعلقة بأن يدرس التاريخ بصورة لا تثير إعجاب الأطفال بأبطال الحروب، فهؤلاء الأبطال الذين ما زالوا ينالون الإعجاب والغبطة هم في الحقيقة قطاع طرق دوليين، يسطون على ثروات الشعوب، ويستحلون حرماتهم، بموافقة حكومية، وغالبًا ما تكون حروب هؤلاء الأبطال منطلقها ومنتهاها؛ مطامع شخصية لبناء زعامات فردية.

والركيزة الأساسية للعمل من أجل السلام هي أن نبدأ بالأطفال، فيجب ألا نغرس فيهم كراهية الشعوب الأخرى عندما ندرس لهم التاريخ والأدب، بل يجب أن نعمل على ألا يستحوذ أبطال الحروب على إعجابهم، وأن نروي لهم الملاحم الشائعة للأبطال من شتى البلاد، أولئك الأبطال الذين قهروا الظلمات التي بداخلهم، وروضوا قسوة الطبيعة التي تحيط بهم (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 61).

يجب أن نربي أطفالنا على الإحساس بوجود أبطال السلام، وأن بطولة السلام هي أعلى مراتب الشجاعة، وإذا كنا نمتلك أوسمة أو أنواطًا لمن لديهم إبداعات أو تصورات أو مبادرات خاصة بتعزيز السلام؟!!(دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 61).

وهناك ثمة معنيان للسلام، أحدهما سلبي، والآخر إيجابي. فالمعنى السلبي: غياب مؤقت للحرب، والمعنى الإيجابي: السلام الدائم، حيث ينتفي صراع المطلقات. والبشرية الآن في حالة انتقال من المعنى السلبى إلى المعنى الإيجابى للسلام، أى الانتقال من حالة سلام مؤقت

إلى سلام دائم؛ يساير بزوغ النزعة الكوكبية التي تعني فيما تعني الاعتماد المتبادل بين الدول والشعوب؛ فتنتفي صورة العدو، ويحل محلها صورة المشارك في تنمية الكوكب (وهبة، 1994، 7).

وترى (هيلين) أن الإنسان قضى لحظات قصيرة جدًّا يمكن الإشارة إليها مجازًا بالدقائق وهو ينعم بالحضارة، وأميل إلى تأكيد أن كل المشكلات والمعضلات التي روعت العقل البشري وأدمت قلبه؛ ستحطم السلام الدولي (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 42).

إيمانها

«الإيمان ضرورة للإنسان. ويل لمن لا يؤمن بشيء» (فيكتور هوغو)

كانت هيلين تتسم بنوع من الإيمان العميق الذي انعكس على إشراقها وانفتاحها، لم تلعن الأيام التي جعلتها أشبه بالجدار الحجري -كما وصفت هي نفسها-. وإنما كانت تشعر بأنها أفضل من كثير ممن يمتلكون كامل حواسهم ولكنهم يفتقدون جوهرهم.

«إن الذين يراقبوني من شرفة وجودهم المعافى؛ يرثون لحالي ولكن مهما بدا طريقي مظلمًا في أعينهم؛ فإني أحمل نورًا عجائبيًا في قلبي، فالإيمان ينير كل سبيل أسلكه». ولمَ لا «والإيمان هو القوة التي بها يخرج عالم محطم إلى النور».

وأعني بكلمة الإيمان رؤية الخير الذي يبقى في الذهن، والحماسة التي تدفع الإنسان إلى البحث عن الكمال رغم كل وجود المعوقات، والإيمان قوة ديناميكية تحطم قيود الروتين، وتوجهنا نحو تغيير كل ما هو حديث جيد، بما هو بالٍ ورثٌّ، فالإيمان ينعش الإرادة، ويثري العواطف، ويوقظ الإبداعية (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 35).

ولفرط اهتمامها بقضية الإيمان ألفت كتابين بعنوان: «إيماني»، «يجب أن نؤمن بالله».

وتجاوزت هيلين الوقوف على الجانب المادي، والولوج في الوجدانيات التي هي أجل ما خلق الله بتعبير ابن عربي. «الحق أنه مما يكسب هذه الحياة كرامة ووجاهة أن نعتقد أننا ولدنا لكي نؤدي أغراضًا سامية وأن لنا حظًا يتجاوز الحياة المادية». «الأمور المرئية وقتية والأشياء غير

المرئية هي الأبدية». «الأشياء الأكثر جمالاً في العالم لا يمكنك رؤيتها أو حتى لمسها، يجب أن تشعر بها بقلبك».

في قصيدتها أنشودة الظلام، توضح هيلين أنها لا يمكن أن تتجاسر وتسأل كيف حُرمت من نور الحياة، ولا من ذا الذي جعلها منعزلة عن هذا العالم بقدها حواسها.

وفي القصيدة ذاتها توضح هيلين قوة البصيرة التي وهبها الله إياها، وأن هذه البصيرة ما إن تتلاشى؛ إلا وتقع أسيرة الحيرة والوحدة. تقول هيلين:

لا أتجــاســر أن أسأل

كيف حُرمنا ذا النور

ومن أودعنا جزر الوحدة

وسط بحار اللامحدود

لا أسأل كيف تزودنا

ببصيرتنا الهائلة العظمى

ما إن تأفل أو تتلاشى؛

إلا صرنا أسرى الحيرة

أسرى الوحدة

من غير رفيق إلا الظلمة

حيث يحيط مصائرنا

سر لا أدري كنهه

من أسرار الله الأعظم

سر لا أجرؤ أن أسأل ربي

إبّان صلاتي

أن يكشف سره

لكني أُؤمن في أعماقي

أن القوة

ونور الحكمة

ينضويان بهذا السر

صعوبة الحياة

«ما يجعل الدنيا تبدو كالجحيم، هو آمالنا أنها ستكون كالجنة» (تشاك بولانيك)

إذا كان هناك إنسان يمكن أن يتحدث عن الحياة ومصاعبها، فلا أقدر من هيلين كيلر، فهي تنظر للشخصية إلى أنها لا يمكن أن تحقق ما تصبو إليه إلا بالتعب والجد والبذل، فالنار هي التي تجلي الحديد، كذا الصعاب هي التي تجعل النفس قوية قادرة على مجابهة الحياة بكل ما فيها من صعاب « الشخصية لا يمكن أن تتطور بسهولة وبهدوء. يمكن فقط من خلال الألم والمعاناة أن تقوى الروح ويلهم الطموح، ويحقق النجاح».

والناس –كل الناس-يعانون، ولا يوجد شخص إلا وعنده من المصاعب والتحديات الكثير، لكن انظر دومًا لمن هو دونك؛ تسترح «بكيت لأنني لا أملك حذاء، حتى اليوم الذي رأيت شخصًا لا يملك قدمين».

كما تنظر للحياة على أنها مغامرة،» الحياة إما أن تكون مغامرة جريئة، أو لا شيء «. وترى أن الجنوح للسلامة والخوف من الولوج في الخطر أصعب نفسيًا من ركوب الخطر ذاته « تجنب الخطر ليس أكثر أمانًا على المدى الطويل من التعرض له». وبالرغم من إيمانها بمعاناة البشر، وأن الحياة كلها تعب ومشقة، فإنها على الجانب الآخر تكافئ من يعاني ويبذل الجهد «. على الرغم من أن العالم مليء بالمعاناة، فهو مليء أيضًا بقصص النجاح».

وترى هيلين آن المعاناة هي التي تصقل الشخصية، إذ لا يتوقع وجود شخصية صُلبة وقوية؛ دون معاناة «الشخصية لا يمكن أن تتطور بسهولة وبهدوء. يمكن فقط من خلال الألم والمعاناة؛ أن تقوى الروح ويلهم الطموح، ويحقق النجاح.»

ولما كانت الحياة كلها كدّ وتعب؛ فإن طلب الراحة فيها درب من المستحيل. «من يبحث عن الراحة فلن يصبه إلا الصدأ». ولكي تفهم الحياة؛ لا بد من ملابسة الناس. «الحياة عبارة عن سلسلة من الدروس التي يجب أن تعاش لكي تفهم»

ولهيلين فلسفة رائعة في التعامل مع الألم وظروف الحياة القاسية فتقول: «عن طريق الاحتكاك بالشر-فقط-استطعت أن أشعر بجمال الحقيقة والحب والخير». وتقول: «أستطيع أن أجزم بأن الصراع الذي يحتمه الشر هو إحدى أعظم النعم، فهو يصيرنا إلى أشخاص أقوياء، صبورين ومحبين للخير، ويمنحنا نظرة ثاقبة في حقيقة الأشياء».

حسها الاستشرافي

«القادة هم المسؤولون عن الرؤية، التابعون غالبًا لا يستطيعون رؤية المستقبل كما يراه القائد» (جون سي ماكسويل)

كانت هيلين ذات نظرة بعيدة لمآلات الأمور في التطور البشري، وكان عندها قناعات تصل لحدّ اليقين بأن البشر وطموحاتهم مفتوحة بلا أي حدود، ولمَ لا وقد وقفت بعمق على تاريخ البشرية، وتوصلت إلى أن ممارسات الحاضر؛ أحلام الماضي، وأحلام اليوم؛ وقائع الغد.

تقول هيلين: «ما يكون بدعة في عصر ما....يصبح مألوفًا في العصر الذي يليه». وتقول: «سأعيش لأخبر العالم بأنه لا توجد حدود لأحلام البشر».

نظرتها للموت

سواي يهاب الموت أو يرهب الردى		وغيري يهوى أن يعيش م

(ابن سناء الملك)

لم تكن هيلين متشائمة مثل كثير من الفلاسفة من فكرة الموت، لكنها نظرت إليه نظرة سلسة بسيطة، فما هو إلا أن ننتقل من دنيا لدنيا، دنيا فانية وأخرى باقية، الأولى بها كثير من المتاعب والمشاق والنقص، والثانية بها الهدوء والسكينة والكمال.

«الموت ليس أكثر من الانتقال من غرفة إلى أخرى، لكن يوجد فارق كبير بين الغرفتين بالنسبة لي هو أنني في الغرفة الثانية سأتمكن من الرؤية».

لقد تحدثت (هيلين) عن الظلام على أنه أساس الحياة، وعمودها الفقري، فقبل النور كان الظلام، وقبل الوجود كان العدم، الذي هو الظلام، ومأوانا جميعًا قبر ليس فيه إلا الظلام، ولكن ننتظر الضوء الذي يشرق بنور ربنا، يوم ينعم الصابرون بنور الله، ويعوض المحرومون بفضل الله وثوابه (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 18، 148).

وتغوص (هيلين) سبر غور مكنون الإنسان بأن قضية الموت بالنسبة له تظل بعيدة عن محور تفكيره طالما كان معافى، ويبلغ به طول الأمل منتهاه، وكأنه مخلد في الأرض.

ونحن نعرف أننا لا بد أن نموت في يوم ما، ولكن تصورنا لذلك اليوم أنه سيكون في المستقبل البعيد، خاصة عندما نكون في صحة جيدة، فإن أمر الموت يكون غير متخيل على الإطلاق، ونادرًا ما نفكر فيه، وتمر بنا الأيام في اتجاه صورة ذهنية للمستقبل لا تنتهي، ونتمادى في ضيق أفقنا متغاضين عن توجهنا الخاطئ نحو الحياة ومعناها (دعدور؛ والمرسي؛ وسليم، 2009، 44، 45).

تقول (هيلين):

لكن مشيئة ربي

شاءت فأحاطت دربي

بستائر مظلمة سوداء

قد سرنا أسرى لظلام

يضرب أغوار المجهول

لا نسبر غوره

بالعقل البشري المحدود

وقريبًا جدًّا سوف نعود

لظلام أحلك

ظلام أبكم

ليس يجيب

هيلين مع عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين

هيلين مع الرئيس الأمريكي جون كيندي

هيلين مع المخترع جراهام بل

هيلين في إحدى رحلاتها عبر العالم والاهتمام بالأطفال المعوقين

هيلين في خريف العمر

عملة معدنية أمريكية لهيلين عام 2003

خاتمة

وبعد...

فهذه هيلين (التلميذة)، وهذه سوليفان (الأستاذة) أيهما أعظم من الآخر؟

لا يستطيع أحد الإجابة، وإن كانتا عظيمتين كلتاهما.

فلو لم تقع (سوليفان) في طريق (هيلين)؛ ما كانت هناك معجزة بشرية اسمها (هيلين كيلر)، ولو عملت (سوليفان) مع آلاف الأكفّاء والصم –ليس من بينهم (هيلين)-؛ ما كان هناك (آن سوليفان).

لكن الثابت أننا أمام نموذج فريد؛ معلمة تتفانى في خدمة طفلة، ثم آنسة، لا تربطها بها أي رابطة؛ سوى رابطة الإنسانية! فتعمل بكل قواها، وعقلها، وحواسها؛ حتى فقدت بصرها من كثرة القراءة والاطلاع لـ(هيلين). ولعل هذا العطاء -غير الممنون- هو الذي ألقى بظلاله على (هيلين) في عمقها الإنساني؛ الذي رشح عليها في كثير من كتابتها وأفكارها. فكانت للأطفال أمًّا رؤومًا، وللشابات أختًا حنونًا، وللكبار بنتًا عطوفًا.

واللافت للنظر أن (سوليفان) عملت طوال هذا العمر، وبكل هذا التفاني دونما أن تتقاضى أي مقابل عما قامت به، يا لها من معلمة يمكن أن تنازع «المعلم الأول» أرسطو في هذا اللقب.

و(سوليفان) حينما قامت بهذا العمل ابتداءً؛ لم تكن لتعلم أو يدور بخلدها أن هذه الطفلة ذات الإعاقة المركبة سيكون لها شأن، وسيشار إليها بالبنان.

وأما المتعلمة (هيلين) فتعطي درسًا في التحدي والمثابرة، وتحطيم كل القيود التي يمكن أن تحد من طموحاتنا وأحلامنا. فالإعاقة إعاقة العقل، أما غيرها من الحواس، فتبقى مجرد أحجار في الطريق، تكبر وتصغر – حسب الظروف والأحوال-، وهذه الأحجار والمزالق، لا تحتاج أكثر من إرادة قوية؛ فتحول تلك الأحجار إلى جسور لعبور أي مانع، وتحطيم أي عائق.

- المراجع

أولًا-المراجع العربية:

أبو عرّاد، صالح بن على(1425). النظام التعليمي في المملكة العربية السعودية وتحديات العولمة، ندوة العولمة وأولويات التربية، جامعة الملك سعود. 303 - 338.

أبو فخر، غسان (1999). فاعلية قراءة الشفاه والإشارات الدالة على مخارج النطق عند الصم، مجلة جامعة دمشق، م15، ع4. 9 - 64.

الأحمد، خالد طه (2005). تكوين المعلمين من الإعداد إلى التدريب، العين: دار الكتاب الجامعي.

أحمد، نبيل (2010). حدائق الحكمة أقوال مأثورة من مدرسة الحياة.

إمام، محمـود محمـد (2012). رؤية معاصـرة لإعداد معلم التربية الخاصة، مجلة التطوير التربوي، سلطنة عمان ، س 10، ع 68. 32 - 36.

باربيري، إليانورا ماسيني (1993). دور المرأة في ديمقراطية ما بعد التصنيع، الدراسات الإعلامية 70، مصر، مارس، 21: 23.

جعفر، نوري (1982). مناهج التربية الخاصة وأساليب التدريس فيها، الرسالة التربوية، المغرب ، س 7 ، ع 12. 84 - 91.

جولمان، دانييل (2000). الذكاء العاطفي، ترجمة، ليلى الجبالي، سلسلة عالم المعرفة، ع (262)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

حسن، مصطفى محمد عبد العزيز (2002). فنون ذوي الحاجات الخاصة.. ودور المعلم تجاهها، مجلة خطوة، عدد15، المجلس العربي للطفولة والتنمية 30- 33.

حسين، طه (1967). مذكرات طه حسين، بيروت: دار الآداب.

حنورة، مصري عبد الحميد (2000). أهمية تنمية الخيال عند الأطفال، خطوة 9، فبراير، مصر، 18: 20.

الحيلة، محمود (2005). طرائق التدريس واستراتيجياته، العين: دار الكتاب الجامعي.

الخطيب، جمال الدين والحديدي، منى (1997). المدخل إلى التربية الخاصة، عمان: مكتبة الفلاح.

دعدور، السيد محمد؛ والمرسي، محمد حسن؛ وسليم، نجلاء السيد (2009). هيلين كيلر الإعجاز والإنجاز، مقالات في فلسفة الحياة والتربية والثقافة، القاهرة: عالم الكتب.

زناتي، إيمان سعد (2008). محاضرات في أدب الطفل، الجيزة: مطبعة العمرانية.

زهران، حامد عبد السلام (1997). الصحة النفسية والعلاج النفسي، ط2، القاهرة: عالم الكتب.

السحيم، محمد (1415). من أخطائنا في تربية أولادنا، الرياض: دار العاصمة.

الشخص، عبد العزيز (1997). اضطرابات النطق والكلام، الرياض: د. ن.

شعير، إبراهيم محمد محمد (2002). فاعلية استخدام خرائط المفاهيم البارزة المدعومة بالمواد التعليمية اللمسية على تحصيل التلاميذ المكفوفين واتجاهاتهم نحو مادة العلوم، المؤتمر العلمي السادس، التربية العلمية وثقافة المجتمع. 259 - 290.

شقير، زينب محمد (2004). إعداد معلم التربية الخاصة بين الواقع والمأمول، المؤتمر العلمي التاسع معايير ومستويات التعليم الجامعي في مصر. 1 - 18.

الطوبرقي، عبد الله (1993). علم الاتصال المعاصر، ط3، جدة: دار زهران.

العامري، عبد الله (2009). المعلم الناجح، عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع.

عبد الرازق، أحمد عبد الرازق (2009). المعلم العربي الواقع والطموح، المؤتمر العلمي الثاني لكلية العلوم التربوية بجامعة جرش (دور المعلم

العربي في عصر التدفق المعرفي) – الأردن. 727 - 743 .

عبد الرازق، صلاح عبد السميع (2002). تصور مقترح لتطوير برامج إعداد معلم التاريخ بكليات التربية في ضوء متطلبات الجودة الشاملة، مجلة الثقافة والتنمية، العدد الخامس، يوليو. 184 - 250.

عبد الرحيم، فتحي السيد (1990). سيكولوجية الأطفال غير العاديين واستراتيجية التربية الخاصة، ج2، ط4، الكويت: دار القلم.

عبد السلام، فاروق وطاهر، ميسرة (1990). بحوث نفسية وتربوية، الرياض: دار الهدى.

عبده، عبد المؤمن محمد (2007). الكفايات اللازمة لمعلم الدراسات الاجتماعية في ضوء المتطلبات التربوية لذوي الاحتياجات الخاصة (المعاقون- الموهوبون) دراسات عربية في التربية وعلم النفس، السعودية ، مج 1، ع 1، يناير. 171 - 197.

عبده، مصطفى (1999). المدخل إلى فلسفة الجمال: محاور نقدية وتحليلية وتأصيلية، ط2، القاهرة: مكتبة مدبولي.

العضيدان، سلوى (د.ت). هكذا هزموا اليأس.

العفنان، علي بن عبد الله (2006). اتجاهات الطلاب المعوقين جسديًا نحو الدراسة والمعلم والإعاقة وعلاقتها بتحصيلهم الدراسي، المجلة التربوية، الكويت، مج 20، ع 80. 135 - 180.

علي، توحيدة عبد العزيز (1993). استخدام بعض الأساليب الحديثة في التدريس لمرحلة رياض الأطفال من أجل الوصول إلى مستوى تعليمي أفضل، دراسات في المناهج وطرق التدريس، الجمعية المصرية للمناهج وطرق التدريس، كلية التربية، جامعة عين شمس، ع(23). 24 - 43.

علي، محمد النوبي محمد (2008). فعالية اللعب في تحسين الوعي الفونولوجي لدى الأطفال ذوي الإعاقة العقلية، مجلة كلية التربية، جامعة طنطا، مصر، ع 39، مج 2. 620 – 694.

عميرة، محمد زين العابدين على (2005). فعالية برنامج مقترح في تنمية كفايات تدريس مهارات طريقة برايل الخاصة بتعليم قاهري لدى

الطلاب المعلمين بدبلوم التربية الخاصة المهنية المستدامة في ضوء المدخل التواصلي، المؤتمر العلمي السادس لكلية التربية بالفيوم (التنمية المهنية المستدامة للمعلم العربي)، مج 2، مصر. 224 - 281.

غانم، رمضان بسطاويسي محمد (1999). علم الجمال عند لوكاتش، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

فريري، باولو (2004). تربية الحرية: الأخلاق، الديمقراطية، الشجاعة المدنية، ترجمة: أحمد عطية أحمد، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

القريطي، عبد المطلب (2005). سيكولوجية ذوي الاحتياجات الخاصة وتربيتهم، ط4، القاهرة: دار الفكر.

القريوني، يوسف والسرطاوي، عبد العزيز والصمادي، جميل (1995). المدخل إلى التربية الخاصة، دبي: دار القلم للنشر والتوزيع.

كمال، نادية يوسف (1991). التربية الجمالية البعد الغائب في تربية الإنسان المصري، مجلة دراسات تربوية، م6، ع33، القاهرة: عالم الكتب. 243 - 278 .

كيلر، هيلين (2016). لو أبصرت ثلاثة أيام، ترجمة: عبد الهادي التازي، الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة.

كيلر، هيلين (د. ت). قصة حياتي العجيبة، ترجمة محمد وهدان.

http://www.goodreads.com/author/show/5217414

ليزا أ. بلوم (2012). إدارة الصف المدرسي تحقيق نواتج إيجابية لجميع الطلاب، ترجمة: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض.

المحرقي، الراهب كاراس (د. ت). شعاع أمل -هيلين كيلر شعاع الإرادة البشرية (أ).

المحرقي، الراهب كاراس (د. ت). علمتني سمكة (ب).

محمد، صلاح الدين عراقي (2004). دراسة التواصل غير اللفظي للمعلم وعلاقته بمفهوم الذات لدى الطفل المعوق سمعيًا، مجلة كلية التربية، جامعة بنها، مصر، مج 14، ع 59، 146 - 172.

المشيقح، عبد الرحمنّ بن صالح (د. ت) رؤى في تأهيل معلم القرن الجديد، بريدة: مكتبة التوبة.

معروف، فوزي (1997). هكذا يصنعون أنفسهم، القاهرة: عن منشورات اتحاد الكتاب العرب.

المهندس، أحمد عبد القادر (2009). هيلين كيلر والمنقذة، جريدة الرياض، العدد 15012، 31 يوليو.

وزان، سراج محمد (1413). التدريس في مدرسة النبوة، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي.

وطفة، علي أسعد (2000). بنية السلطة وإشكالية التسلط التربوي في الوطن العربي، ط2، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

وهبة، مراد (1994). السلام والتقدم، إبداع 12، (12)، ديسمبر، مصر، 7: 10.

يوسف، فاطمة (2007). مسرحة المناهج، الإسكندرية: مركز الإسكندرية للكتاب.

ثانيًا-المراجع الأجنبية:

Kumar, D. (2001) Science for students with visually impairments teaching suggestion and policy implication for secondary education, Electronic Journal of Science Education, 5, (3), http//unr.edu/homepage/crowther/ejse/kumar2etal.html

Werner, M. (2010). Helen Keller and Anne Sullivan: Writing Otherwise. Textual Cultures: Text, Contexts, Interpretation, 5(1), 1-45. http://dx.doi.org/10.2979/tex.2010.5.1.1

ثالثًا-المواقع الالكترونية:

(سلام، يمنى 2007، إلى معلماتنا.. هيلين وآن، والمهمة الصعبة، (http://www.alukah.net

العيادي، نفين ( ) 16 معلومة لا تعرفها عن هيلين كيلر.. رقما 6 و14 سترفعان معنوياتك إذا كنت تشعر بالفشل

http://www.almasryalyoum.com

(الشهاب، خولة، 2017، معجزة الإنسان تبحر في أمواج الألم، (http://www.alyaum.com

.HELEN KELLER: THE STORY OF MY LIFE

http:// www.Inspiring-Quotes-and-Stories.com 26/ 3/ 2013

HELEN KELLER: the Animated Hero Classics Resource & Activity .Book, NEST. Printed in the United States of America

http:// www.nestentertainment.com 26/ 3/ 2013

HELEN KELLER
http://www.gigglepotz.com/people/book_helenkeller.pdf 26/ 3/ 2013

www.albayyna-new.com. 3/ 4/ 2013

.http://www.memi2012.blogspot.com/2012/06/1

http://www.mhrde.net 26/ 3/ 2013

http:/www./ar.wikipedia.org 26/ 3/ 2013

http://www.d1g.com) 14/ 3/ 2017

http://www.almarefah.com/print.php?id=613

http://www.almarefah.com/print.php?id=613

http://www.maioz.com) (www.takalami.org
http://www.misrjournal.com) (http://kenanaonline.com
www.goodreads.com) (http://www.rougemagz.com
http://www.looking4sarah.ws) (http://www.alnoor.se

http://www.edaraty.net) (http://alwakei.com http://www.alyaum.com)
(http://hessahpeace.com